القاموس الإسلامي للناشئين والشباب

١٣

نظم الحكم في الدولة الإسلامية

مكتبة العبيكان

القاموس الإسلامي

للناشئين والشباب

١٣

نظم الحكم في الدولة الإسلامية

إعداد :
محمد علي الهمشري
السيد أبو الفتوح
علي إسماعيل موسى

دار أراكان
مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الهمشري، محمد علي

نظم الحكم في الدولة العثمانية : محمد علي الهمشري، السيد أبو الفتوح، علي إسماعيل موسى – الرياض.

... ص؛ ..سم (القاموس الإسلامي للناشئين والشباب؛ ١٣)

ردمك : ٩٩٦٠-٢٠-٣٩٣-X

١– العقيدة الإسلامية - معاجم ٢– الفكر الإسلامي - معاجم
٣– الحضارة الإسلامية - معاجم أ– أبو الفتوح، السيد (م. مشارك)
ب– موسى، علي إسماعيل (م. مشارك) ج– العنوان د– السلسلة

ديوي ٣، ٢٤٠ ١٨/٠٦٩٢

ردمك : ٩٩٦٠-٢٠-٣٩٣-X رقم الإيداع : ١٨/٠٦٩٢

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ / ١٩٩٧

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

القاموس الإسلامي للناشئين والشباب



مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله ومن سار على دَرْبه واتَّبعَ هداه إلى يوم الدين.

أما بعد،،

فإن أسمى رسالة يكرّس الإنسانُ لها نفسه هي رسالة تربية جيل مسلم، يرعى اللهَ في شئون دينه ودنياه، ويحمل الأمانةَ للحفاظ على دستور الإنسانية الخالد، كتاب الله الكريم، وهَدْي رسوله الأمين ﷺ، ويسلك في هذه الحياة وفقا لقواعد السلوك الإسلامي الصحيح.

وواقع الأمر أن الاهتمام بالعلوم الإسلامية والتربية الدينية ليس مسئولية المدرسة وحدها؛ فالخطط الدراسية توزَّع على مواد التعليم المختلفة، والمناهج مزدحمة، وعدد الساعات المخصصة لكل مادة لا يقبلُ الزيادة،

والكتب المدرسية تقلَّصَت وظيفتُها في كثير من الأحيان. واقتصرَت على تقديم القدر ـ من المعلومات ـ الذي يَسمح بنجاح الدارس في الامتحان. ولا يَستطيعُ أحد أن يَتجاهلَ أن حاجة الناشئ المسلم ماسّة إلى مرجع وافٍ يجيب عن مختلف الأسئلة التي تَعرِض له في حياته اليومية، فضلا عن أن يُشْبعَ ظمَأه للقراءة الحرة التي تجلبُ له المتعة، من خلال الاطلاع على محُدّدَات سلوك المسلم، في مجال الطهارة والعبادات وغيرها، إلى جانب الاطلاع على التراث الإسلامي، وأمجاد الإسلام على مر العصور.

ومن حاجة الشباب المسلم بعامة، والناشئينَ بخاصة، نَبعَت إذن فكرةُ إصدار هذا القاموس:

«القاموس الإسلامي للناشئين والشباب»

***

وفيما يلي مزيد من التعريف بهذا القاموس:

* إنه قاموسٌ متخصص، يُعالجُ المصطلحات الدينية اللازمةَ لتثبيت المفاهيم الإسلامية الصحيحة لدى الناشئين والشباب في العبادات والمعاملات، ويوفّر لهم الزادَ اللازمَ عن أبرز معالم الحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي، والقيم التي أرساها الإسلام، ورسَّخَ أصولَها.

وإذا كان العُرْفُ قد جرى على أن يكونَ القاموسُ مرجعًا يَرجعُ إليه القارئُ للكشف عن أصل مفردة من المفردات، وعن اشتقاقها أو عن معناها وكيفية استخدامها فإن هذا القاموسَ المتخصصَ يؤدي إلى جانب هذا وظيفة أخرى في مجاله؛ إذ يُعد مصدراً للقراءة المتصلة، وللمعرفة والمتعة في كل مَدْخل من المداخل التي يعالجها؛ فهو يشرحُ المفهومَ الديني الذي يتضمنه المدْخَلُ (المفردة)، ويعرِضُ لاستخدامه في الآيات القرآنية وفي الحديث الشريف، ويعالجُ الاشتقاق اللغوي من زاوية الثقافة والمعرفة الدينية بشكل أساس. ويستطيع المستفيدُ من القاموس أن يعتمدَ على المادة المعروضة تحت كلّ مدخل على أنها مصدر قرائي يضم مادة متكاملة، وليس مُجردَ ثَبت بقوائم للمفردات ومعانيها.

* وهذا القاموسُ يضع يدَ القارئ على المفردات أو المصطلحات الدينية الأساسية المتداولة في كتاب الله الكريم، وفي كتب الحديث وكتب الفقه، والتي تتجمعُ حولها المفاهيمُ الأساسية التي تشكلُ تفكير الإنسان المسلم وسلوكَهُ وممارساته.

وتلك المفرداتُ أو المصطلحات هي «المدَاخلُ» المعروضةُ في أبواب القاموس.

ومن هنا فإنه عُمِد إلى وضع أجزاء تحوي بين دفتي كل جزء منها شرحًا وتفسيرًا لما استُغلق على الفهم، أو توضيحًا لما استتر. وهذه الأجزاء هي:

(١) العقيدة.
(٢) الطهارة.
(٣) الصلاة.
(٤) الزكاة.
(٥) الصوم.
(٦) الحج والعمرة.
(٧) الجهاد.
(٨) الأسرة المسلمة.
(٩) المعاملات الإسلامية.
(١٠) انتشار الإسلام في آسيا.
(١١) انتشار الإسلام في إفريقيا.
(١٢) انتشار الإسلام في أوروبا.
(١٣) نظم الحكم في الإسلام
(١٤) ازدهار العلوم والفنون الإسلامية.
(١٥) مفاهيم وقيم إسلامية.

* * *

* تعالَجُ في كل جزء من أجزاء القاموس - وبترتيب ألفبائي - المداخلُ الرئيسة التي تقعُ فيه، والتي وقعَ الاختيار عليها من قِبَل القائمين بإعداد مادة القاموس، وذلك بعد عملية مسح شامل للمصادر الأم في الموضوع، وبعد عملية انتقاء دقيقة تم من خلالها استبعادُ المداخل غير الأساسية، التي يتضحُ عدمُ شيوع استخدامها، وعدم حاجة الناشئة إليها بدرجة كبيرة في هذه الفترة من حياتهم.

* وقد رُوعِيَ في المداخل التي يقدمُها القاموسُ أن تكون في صيغة الاسم أو المصْدر، وليس في صيغة الفعل الثلاثي، كما هي الحالُ في معظم القواميس اللغوية؛ وذلك مراعاة للغرض من القاموس، باعتبار أنه قاموسٌ متخصص، ومراعاة لاحتياجات القارئ الذي يواجه - على الأرجَح - مُصطلحا دينيّا يريدُ تعرُّفَه، وهذا المصطلحُ غالبا ما يكونُ في صيغة المصدر، وربما لايستطيع القارئ أن يعودَ بالمُصطلح الذي يواجههُ إلى فعله الأصلي مجردًا، كما أنه - على الأغلب - لا يريدُ أن يدخلَ في متاهة الاشتقاقات اللغوية التي قد تبعده عن غايته، وتعوق استفادته المنشودة.

* ويحرصُ القاموسُ على تقديم الخرائط للشرح و التعريف كلما كان هذا ممكنا؛ دعمًا لأهدافه في كونه موجَّها لفئة معينة من أبنائنا الطلاب والطالبات، وهم الناشئة والشباب. فالغرض أن يستفيدَ منه الصغير والكبير ناشئا وشابا.

ولكي يكون استخدام القاموس يسيرًا على المستفيد منه حرصنا أن نقدم في الصفحات الأخيرة من كل كتاب بيانًا شاملا بمحتواه الذي يعرضُ لجميع المداخل التي يضمُّها الكتاب. وقد رُتبت هذه المداخل ترتيبا ألفبائيّا، ليسهُلَ على المستفيد العثور على موضع المدخل الذي يريد. وسوف يجدُ من خلال هذا البيان: العنوان، ورقم الصفحة التي تحويه.

وإذا ما أراد القارئ البحث عن مفردة ما فعليه أن يسقط أداة التعريف (ال) من المدخل - إن وجدت - حتى يعثر على الحرف الذي يبدأ به المدخل في الترتيب

الألفبائي؛ فمفردة مثل (التأويل) يبحث عنها في المدخل المبدوء بالتاء، و(الحساب) يبحث عنها في المدخل المبدوء بالحاء (حساب)، و(الخاتم) يبحث عنها في المدخل المبدوء بالخاء (خاتم).. وهكذا.

التأويل: تبدأ بالتاء (تأويل).

الخاتم : تبدأ بالخاء (خاتم).

الوحي : تبدأ بالواو (وحي).

* * *

* وإذا كان هذا (القاموسُ الإسلاميُّ للناشئينَ والشباب) - فيما نَحسب - محاولةً غير مسبوقة في صياغته وإعداده، وفي الفئة التي أُعِدَّ من أجلها إعدادًا يتناسبُ في مادته ولغته وأسلوب عرضه مع احتياجاتها الفكرية والنفسية والتربوية، فإن مكتبةَ العبيكان ودارَ أراكان اللتين كان لهما فضلُ هذه المحاولة لتؤمنان بأنهما قد خاضتا التجربة بعزم وإصرار؛ مستهدفتين وجه الله، حريصتين على أن توفرا للشباب والناشئينَ مرجعًا ميسَّرا، يكونُ لهم نعْمَ الرفيق في مسيرة حياتهم التعليمية والعملية.

* * *

وإن «**العبيكان**» و«**أراكان**» لترجوان في الوقت نفسه أن تتلقّيا تعليقات السادة المربين وآراءَهم في هذا العمل، أملاً في تطويره في الطبَعات القادمة بإذن الله تعالى.

إن نريدُ إلا الإصلاحَ ما استطعنا، وما توفيقنا إلا بالله، عليه توكلنا وإليه أنبنا. والحمدُ لله أولاً وآخرًا..

أسرة تحرير
القاموس الإسلامي



13

نظم الحكم في الدولة الإسلامية



نظم الحكم في الدولة الإسلامية

* مدخل :

انتشر الإسلام في إفريقية وآسيا وأوربا، ورفرفت راياته عالية في أرجاء المعمورة، وقامت العواصم الإسلامية قواعد للدعوة الإسلامية تنشر العدل والرخاء والمحبة والمساواة بين الناس، وتشع بأنوار العلم والمعرفة، وتتيح أفضل الظروف لازدهار العلم والفن في سائر ديار الإسلام.

وأرسى المسلمون في الجزيرة العربية وفي سائر بلاد الإسلام نظماً للحكم تنشر الأمن والطمأنينة، وتحقق العدل والتسامح، وتتيح لأهل الذمة من أصحاب البلاد التي دخلها الإسلام الفرص للإسهام بمقدرة وكفاية في ازدهار دول الإسلام.

وسواء أكانت الخلافة الإسلامية خلافة راشدة تسير على نظام البيعة الإسلامية أم كان الحكم وراثيا بين أبناء الخليفة وأشقائه، وسواء خضعت سائر الأمصار للخليفة في بغداد أو دمشق أم قامت بها حكومات يستقل بها الولاة ويكتفون بذكر اسم الخليفة في خطب الجمعة والأعياد على المنابر، أو كانت خلافات مستقلة معاصرة لبعضها البعض في عواصم إسلامية شتّى، كما كان الحال أيام الخلافة الأموية بالأندلس والفاطمية بمصر في الوقت الذي كان فيه الخليفة العباسي يحكم من بغداد - فإن نظم الحكم الإسلامية ورّثت العالم نماذج مُشرفَةً محكمة لإدارة الدولة بمؤسسات شتى، منها: الوزارة والحجابة والكتابة والقضاء والحسبة والعسس أو الشرطة.. والبريد والجيش والأسطول.

تلك المؤسسات أقامت العدل والطمأنينة ووفرت الحماية للمجتمع الإسلامي ولمن يستظلون بظله من أهل الذِّمَّة الذين ما لبثوا أن أصبحوا جنداً للإسلام يؤمنون بعقيدته ويتحدثون بلغته ويصدون عنه كيد أعدائه من المغول والتتار والصليبيين.

وفي الصفحات التالية نماذج للمؤسسات التي قام عليها نظام الحكم في الدول الإسلامية.

***

نظم الحكم في الدولة الإسلامية

- أولاً: الحجابة:

وظيفة ديوانية كبرى من وظائف الدولة الإسلامية، والذي يقوم بها يسمى (الحاجب)، وهو من ينظم عملية دخول الذين يريدون مقابلة الحاكم من الناس ، وفق نظام متفق عليه مع ذلك الحاكم .

والخليفة معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ أول من اتخذ حاجباً من حكام الدولة الإسلامية .

وعندما اتسعت الدولة الإسلامية وكثرت الوظائف الديوانية اتخذ الوزراء حُجَّاباً لهم، كما اتخذ قاضي القضاة حاجباً ينظم له دخول المتقاضين من الناس .

وقد ارتفع شأن الحجابة في الأندلس، فكان الحاجب هو الرسول بين الوزارة والخليفة، ولذلك كان لقب الحجابة من الألقاب العظيمة في الأندلس .

والحاجب في الدولة الإسلامية كيفما كانت منزلته ومكانته فإنه لايمنع ثلاثة من الدخول إلى الحاكم في أي وقت يريد الواحد منهم الدخول إليه، وهم: المؤذن للصلاة؛ فإنه داعي اللّه، وصاحب البريد؛ فإن أمراً ما جاء به، و رسول الثغر .

وفي اللغة: الحجابة من: حَجَب، يحجُب، حَجْباً: أي حال ومنع. فالَحجْبُ هو المنع.

والحجابة، وظيفة ديوانية كبرى عُرفت في الدولة الإسلامية، وهي حرفة الحاجب، وجمعه: حُجّاب، وهو البواب أيضاً. ويقال: استحجبه: أي ولاّه الحجابة.

- أصل الخلافة:

الأصل الشرعي للخلافة كنظام للحكم في الإسلام يتمثل في الصورة التي سار عليها خلفاء رسول اللّه ﷺ مهتدين بهديه في رعاية شئون المسلمين وإدارة الدولة الإسلامية، وقد كان الخلفاء الراشدون أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفانَ وعليٌّ بن أبي طالب ـ رضي اللّه عنهم أجمعين ـ يمثلون بحق ما ينبغي أن يكون عليه الخليفة المسلم في العدل والزهد ورعاية أمور المسلمين ونشر الدعوة الإسلامية والحفاظ على حمى الإسلام متجردين تمام التجرد من الأطماع الشخصية، مراعين وجهَ اللّه في كل عمل يقومون به. وكانوا بذلك يمثلون المعنى الأصلي للخلافة بوصفها «الرياسة العامة في أمور الدنيا والدين، نيابة عن النبي ﷺ.

ويقول ابن خلدون: «الخلافة هي حمل الكافَّة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة؛ فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به».

ومنزلة الخليفة من الأمة كمنزلة الرسول ﷺ من المؤمنين، له عليهم الولاية العامة، والطاعة التامة، وله حق القيام على دينهم، فيقيم فيهم حدوده، وينفذ شرائعه.

وله من باب أولى القيام على شئون دنياهم أيضاً، بيده وحده زمام الأمة؛ فكل ولاية أو سلطة مستمدة منه، وكل خطة دينية أو دنيوية متفرعة عن منصبه، وكل ذلك في حدود الشرع.

كانت خلافة الخلفاء الراشدين بعد وفاة النبي ﷺ (١١-٤٠هـ/ ٦٣٢-٦٦١م) تتم بالاتفاق بين المسلمين، وتتم فيها البيعة لخليفة رسول اللّه وفقاً لمبادئ الشورى علناً وفي اجتماع عام.

فقد بويع أبو بكر الصديق - رضي اللّه عنه - في سقيفة بني ساعدة من عدد كبير من المهاجرين والأنصار، وبويع في اليوم التالي في المسجد بيعة عامة أعلن على إثرها سياسته في رعاية شئون المسلمين في خطبته الشهيرة التي قال فيها:

«أيها الناس، قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن صدفت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء اللّه.

لا يدع أحد منكم الجهاد؛ فإنه لايدعه قوم إلا ضربهم اللّه بالذل. أطيعوني ما أطعت اللّه ورسوله، فإذا عصيت اللّه فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم اللّه».

وإذا كان أبو بكر الصديق ـ رضي اللّه عنه ـ قد استخلف عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ ليحل محله في الخلافة فإنه لم ينفرد بالرأي في ذلك الاستخلاف . . فقد استشار عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وأسيد ابن حضير وسعيد بن زيد وغيرهم من المهاجرين والأنصار ـ رضوان اللّه عليهم أجمعين ـ فأثنى الجميع على عمر . . ومع ذلك فقد جاء في العهد الذي عهد به أبو بكر الصديق إلى عمر بن الخطاب رضي اللّه عنهما :

«بسم اللّه الرحمن الرحيم . . هذا ما عهد أبو بكر خليفة محمد رسول اللّه ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، في الحال التي يؤمن فيها الكافر ، ويتقي الفاجر : إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ، فإنْ بَرَّ وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه ، وإن جار وبَدَّلَ فلا علم لي بالغيب ، والخيرَ أردتُ ، ولكل امرئ ما اكتسب «وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون» .

وخطب أبو بكر الصديق ـ رضي اللّه عنه ـ الناسَ ، وهو في شدة مرضه يقول :

«أترضون لمن أستخلف عليكم؟ فإني واللّه ما ألَوْتُ من جهد الرأي ، ولا ولّيْتُ ذا قرابة . وإني قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا» .

فقالوا : «سمعنا وأطعنا» . وكان ذلك تطبيقاً للشورى .

ورفع أبو بكر ـ رضي اللّه عنه ـ يديه إلى السماء ، وهو يقول :

«اللهم إني لم أرِد بذلك إلا صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة ، فعملت فيهم بما أنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأياً ، فوليت عليهم خيرهم ،

وأقواهم عليهم، وأحرصهم على ما أرشدهم، وقد حضرني من أمرك ما حضر، فاخلفني فيهم، فهم عبادك، ونواصيهم بيدك. أصلح اللهم لهم ولاتهم، واجعلهم من خلفائك الراشدين، وأصلح له رعيته».

وخشى أصحاب رسول اللّه أن يقضي عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه - الخليفة الثاني للمسلمين - نحبه دون أن يستخلف أحداً، فطلبوا إليه أن يختار من يخلفه. لكنه حرصاً على الالتزام بالشورى بين المسلمين أبدى رأيه بأن يكون خليفة المسلمين الذي يليه من بين مَنْ بشّرهم رسول اللّه ﷺ بالجنة، وهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيداللّه رضي الله عنهم؛ ليختاروا من بينهم من يقوم بمسئولية الخلافة بعد وفاته.

وأوصى بأن يُضَمَّ عبد ا للّه بن عمر - رضي اللّه عنه - إلى المجموعة السابقة عندما يجلسون لاختيار أحدهم على ألا يكون له مسئولية الخلافة. وأوصى بأن تكون الخلافة في حال تساوي الأصوات للرجل الذي يكون عبد اللّه بن عمر في صفه.

وقال عمر للمقداد بن الأسود رضي اللّه عنه: «إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم».

وقال لصهيب رضي اللّه عنه: «صَلِّ بالناس ثلاثة أيام، وأدخل عليا وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إن قدم، وأحضر عبد اللّه بن عمر ولا شيء له من الأمر، وقُم على رءوسهم، فإن اجتمع

خمسة ورضوا رجلاً، وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم، وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما، فإن رضي ثلاثَة رجلاً منهم، وثلاثة رجلاً منهم فحكموا عبد اللّه بن عمر، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد اللّه بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس».

وكان أن اختير عثمان بن عفان ـ رضي اللّه عنه ـ للخلافة. وجاء في الخُطبة التي خطب الناس بها بعد البيعة: «إنكم في دار قُلْعَة، وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه.. ألا وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولايغرنكم باللّه الغَرورُ.. اعتبروا بمن مضى، ثم جدّوا ولاتغفلوا.. ارموا بالدنيا حيث رمى بها اللّه.. واطلبوا الآخرة..».

ويلاحظ أن الخطبة لم تكن تبين السياسة التي كان عثمان ـ رضي اللّه عنه ـ ينوي انتهاجها في إدارة الدولة الإسلامية، وإنما كانت نصائح تتعلق بالدين، ويرى بعض المؤرخين أن الخطبة كانت متأثرة بشيخوخة عثمان وما فطر عليه من اللين.

وتمت البيعة لعليٍّ بن أبي طالب ـ رضي اللّه عنه ـ بعد موت عثمان رغم تخلف بعض الصحابة عن مبايعته. ومع تولي على بن أبي طالب مسئولية الخلافة ظهرت بوادر الانقسام بين المسلمين.

فقد بدأ عَليٌّ ـ رضي الله عنه ـ بمحاولة القضاء على الفتن، وتوطيد أركان الدولة، ولكن معاوية ابن أبي سفيان والي الشام ـ رضي الله عنه ـ أصرَّ على القيام بمعاقبة قتلة عثمان ـ رضي الله عنه ـ قبل كل شيء، ومن ثَمَّ لم يذعن لعلي حين قام بعذله.

وعليه فقد قامت الحرب بين علي ومعاوية، وعقد بينهما التحكيم، ثم قتل علي . . . وفاز معاوية بالخلافة، وأصبحت دمشق عاصمة الأمويين وعاصمة الخلافة الإسلامية في ثوب اختلف تماماً عن الصورة التي رسمها الخلفاء الراشدون للخلافة، ممّا حدا بالإمام أبي حنيفة النعمان فيما بعد إلى أن يقول: «إن الخلافة الحقة لَم تدم إلا ثلاثين سنة من فجر الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين».

لكن الخلافة تحولت في عهد بني أمية (٤١-١٣٢هـ/ ٦٦١-٧٥٠م) إلى حكم وراثي، وأصبح معاوية بن أبي سفيان أول خلفاء الأمويين يتمتع في دمشق ـ عاصمة الأمويين بالشام ـ بكل مظاهر الأبّهة التي تمتع بها الملوك والقياصرة في الدولتين البيزنطية (الرومانية) والساسانية (الفارسية)؛ فاتخذ سريراً للملك، وأقام الشرطة لحراسته، واتخذ مقصورة في المسجد يصلي فيها بعيداً عن الناس، فإذا سجد قام الحرس على رأسه رافعين السيوف.

وكان الخليفة في عهد الأمويين يعين ولي عهده، ويأخذ له البيعة من الأعيان وكبار القواد في حضرته. أما في الأقاليم والأمصار فكانت البيعة تتم لولي العهد الذي عينه الخليفة بحضور الوالي الذي يحكم نيابة عن الخليفة.

وهكذا انتقلت الخلافة من خلافة بالشورى إلى ملكية وراثية.

وعندما انتقل الحكم إلى العباسيين عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م صار الخلفاء العباسيون على النظام نفسه الذي اتبعه الأمويون في التوريث.

وصار الخلفاء العباسيون يعهدون بولاية العهد لأكثر من واحد، مما أدّى إلى الفرقة، وقيام الفتن والحروب الداخلية.

وما لبث أن قامت في بعض أجزاء العالم الإسلامي دويلات إسلامية مستقلة.. فاستقل الأمويون بالأندلس ١٣٨هـ/ ٧٥٦م، واستقل الأدارسة بالمغرب الأقصى ١٧٢هـ/ ٧٨٨م، والأغالبة بتونس ١٨٤هـ/ ٨٠٠م، وأخذت الدولة العباسية في التجزؤ والتفكك.

وخلال العصر العباسي الثاني ٢٣٢هـ/ ٦٥٦م - ٨٤٧/ ١٢٥٨م، بلغت الدولة العباسية مبلغاً كبيراً من الضعف، وأتاح ذلك الفرصة لقيام الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب عام ٢٩٧هـ، ثم في مصر عام ٣٦٢هـ.

وقامت كذلك الخلافة ببلاد الأندلس في عهد عبد الرحمن الثالث، أعظم أمراء الدولة الأموية في تلك البلاد في الفترة من ٣٠٠-٣٥٠هـ، وأصبح هناك ثلاث خلافات إسلامية:

(١) العباسيون في الشرق.

(٢) والخلافة الفاطمية ببلاد المغرب.

(٣) والخلافة الأموية بالأندلس.

وكان الخلفاء الفاطميون في المغرب يَتَسَمَّون باسم أمير المؤمنين، وكذلك فعل عبد الرحمن الناصر في الأندلس.

وخلال تلك الفترة تعاقب على حكم بغداد كذلك أمراء (بني بويه) الذين يعود نسبهم إلى ملك آل ساسان (الفرس) ٣٣٤-٤٤٧هـ/ ٩٤٥-١٠٦٠م، ولم يكن هؤلاء الأمراء يعترفون بحق الخليفة العباسي في السيادة على جميع العالم الإسلامي.

- ثم حكمها السلاجقة الذين يرجعون بنسبهم إلى أصل تركي في بغداد سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٦٠م، وظلوا يتوارثونها إلى أن استولى عليها هولاكو قائد المغول عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م.

وازدادت شوكة الموالي من الأتراك في مقر الخلافة العباسية في بغداد، وكان الخلفاء العباسيون يعتمدون على الأتراك حرسًا لهم، فما لبث هؤلاء الموالي أن أصبحوا سادة واستبدوا بسلطان الحكم، ولم يعد للخليفة العباسي من الأمر شيء سوى السلطة الدينية فيذكر اسمه في خطبة الجمعة والعيدين، وينقش اسمه على النقود. وأصبح في يد الأمراء الأتراك حبس الخليفة وخلعه وقتله.

كان صلاح الدين الأيوبي قد استطاع أن يوطد سلطته في مصر. وانتهز فرصة مرض الخليفة الفاطمي العاضد فانتزع منه الخلافة، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي المستضيء عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، وأمر بالدعاء له على منابر اليمن والشام وفلسطين.

وحرص الظاهر بيبرس من أمراء المماليك بمصر ٦٥٨-٦٧٦هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٧م، على استقدام أحد رجال الدولة العباسية في عام ٦٥٩هـ، (وكان هولاكو قد احتل بغداد وأسقط الخلافة العباسية فيها عام ٦٥٦هـ)، وأعلنه بيبرس خليفة بمصر. وكان اسم بيبرس يقترن باسم الخليفة عند الدعاء له في الصلاة، كما كانت النقود تحمل اسم بيبرس واسم الخليفة في آن واحد.

ولم يكن المغول الذين اعتنقوا الإسلام في بغداد يهتمون بالخلفاء العباسيين في القاهرة. وأصبحت كلمة (خليفة) تشير إلى بعض الواجبات الدينية فقط التي يقوم بها، دون أن يكون لها أية دلالة في ممارسة شئون حكم المسلمين. وكان الخليفة مهدداً بالخلع إذا ما حدثته نفسه بالتدخل في أي شأن من شئون الدولة.

وظل هذا النظام معمولاً به في مصر حتى جاء السلطان العثماني سليم الأول ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، وأخذ معه الخليفة العباسي إلى القسطنطينية.

ولم يحرص السلاطين العثمانيون في مصر في مكاتباتهم الرسمية على أن يلقبوا بلقب الخلفاء إلا في القرن الثامن عشر الميلادي.

وفي القرن التاسع عشر ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٦م جاء في الدستور الذي صدر في عهد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني نَصٌّ يشير إلى (السلطنة العثمانية التي آلت إليها الخلافة الإسلامية العظمى) وأن هذه السلطنة «تئول إلى أكبر أبناء السلطان بصفته خليفة المسلمين؛ حيث قد أصبح حامي الدين الإسلامي».

وظل الحال كذلك إلى أن ساءت حال الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى ووقّعت تركيا مع الدول الغربية صلحاً أعلنت الجمهورية التركية الحديثة على أثره في عام ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م.

ورأى الأتراك أن بقاء الخلافة بها قد يثير بعض المتاعب، بعد أن أخذ مصطفى كمال أتاتورك بمبدأ فصل الدين عن السياسة، وألغيت الخلافة الإسلامية في عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م.

- أمير المؤمنين:

لقب أطلق على الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين رضي اللّه عنه. وكان اللقب الذي يطلق على أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - هو (خليفة رسول اللّه).

ومعنى لقب (أمير المؤمنين) ودلالته أن المؤمنين قد أصبحوا قُوَّةً، وأن الخليفة هو أمير تلك القوة، وكان لقب (الأمير) عند العرب في الجاهلية يُطْلَقُ على قائد الجيش.

وقد أطلق المهدي - أول الخلفاء الفاطميين - على نفسه لقب (المهدي أمير المؤمنين».

- الإمام:

لقب يطلق على خليفة المسلمين الذي يتولى شئونهم الدينية والسياسية معاً. وتتمثل في هذا اللقب الصفة الدينية من حيث الأمانة في الصلاة بشكل خاص.

وكانت إمامة المسلمين في الصلاة من أهم الأدلَّة التي استند إليها الصحابة في أحَقِّيَّة أبي بكر - رضي اللّه عنه - بالخلافة بعدَ وفاة النبي ﷺ.

فيؤم المسلمين في الصلاة، ويعين الولاة والقضاء، ويعزلهم إذا ما حادوا عن الحقِّ، ويسند المناصب الرفيعة إلى من يأنس فيهم القدرة على القيام بها، ويعفي منها من يرى إعفاءه. وهو الذي يكاتب الأباطرة والملوك خارج ديار الإسلام، ويعلن الحرب إذا دعت لذلك ضرورة؛ دفاعاً عن الإسلام، ويتولى قيادة الجيوش الإسلامية بنفسه، أو يعين عليها من يأنس فيه الكفاءة والقدرة على القيادة.

وله يدين المسلمون بالسمع والطاعة، فَيُدعى له بالتوفيق والنصر في خطب الجمعة والعيدين في سائر مساجد الدولة الإسلامية.

ويحرص كل أمير أو حاكم يصل إلى الحكم في أحد الأقاليم الإسلامية تحت أي ظرف من الظروف على أن يحصل على موافقته ورضاه ليكون له من ذلك سندٌ شرعي يستند إليه في السلطة التي يمارسها.

وكان الخلفاء بعد النبي ﷺ يحافظون على وظيفة الإمامة في الصلاة لما تدل عليه من صفة القيادة، كما كانت الإمامة من أهم أعمال الولاة في الأمصار الإسلامية.

- البيعة:

أسلوب لجأ إليه المسلمون في اختيار خليفة رسول اللّه ﷺ الذي يرعى شؤون المسلمين، ويمسك بيده زمام الحكم في الدولة الإسلامية في شؤون الدنيا والدين.

وكانت (البيعةُ) أو (المبايعة) في عهد الخلفاء الراشدين تَتمُّ في مكان يجتمع فيه صحابة رسول اللّه ﷺ من المهاجرين والأنصار في قاعدة الحكم الإسلامي (المدينة المنورة)؛ للتشاور حول من يتم استخلافه من صحابة رسول اللّه، ثم يلي ذلك اجتماعٌ عام في المسجد تُعْلَنُ فيه (البيعة العامة). ويقوم الخليفة الذي تم الاتفاق على بيعته بإلقاء خطبة يشرح فيها سياسته، ويعاهد المسلمين فيها على العمل بكتاب اللّه وسنة رسوله وسنن الخلفاء من بعده.

وهكذا نرى أن البيعة في الإسلام كانت على بساطتها أسلوباً من أساليب الشورى؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ [الشورى: ٣٨] حيث يتاح لجميع أصحاب رسول اللّه ﷺ وتابعيهم أن يتشاوروا ويتحاوروا بالحجة والمنطق؛ تأييداً أو اعترافاً لشخص الخليفة الذي يختارونه من بينهم ليخلف رسول اللّه ﷺ فيهم والبيعة بذلك الأسلوب- وإن لم تكن مطابقة لأسلوب الانتخاب الذي تعرفه النظم الديموقراطية في عهدنا الحاضر- إلاّ أنها كانت على بساطتها هي الصحيحة للتعبير عن الرأي بما يلائم بساطة الحياة في ذلك العصر الذي يمتد في أعماق التاريخ إلى أكثر من أربعة عشر قرناً.

وليس غريباً إذن مع اتساع الدولة الإسلامية، ومع ازدياد نفوذ بعض الولاة في تلك الدولة ودخول كثير من الأمصار في ديار الإسلام، ومع رغبة بعض الولاة في الاستئثار بالسلطة أن تتحول البيعة إلى أداة في أيدي بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين يوجهونها لخدمة طموحاتهم الشخصية،

فتكون البيعة لأبناء الخليفة وأحفاده أو لإخوته من بعده . . وبذلك تحوّلت البيعة الإسلامية بعد عهد الخلفاء الراشدين في كثير من الأحيان إلى بيعة للإخوة أو الأبناء . وصارت الخلافة بذلك في معظم العهود إرثا .

- **بيعة أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه «بيعة السقيفة»:**

والسقيفة هنا هي سقيفة بني ساعدة، ظُلّة كانت لهم بالمدينة المنورة، وقد تمت بيعة السقيفة لأبي بكر الصديق بعد وفاة رسول اللّه ﷺ عام ١١هـ، وبيعة السقيفة بيعة خاصة؛ لأن البيعة العامة تمت في مسجد رسول اللّه ﷺ في اليوم التالي لبيعة السقيفة .

وقد كاد ينشأ خلافٌ بين المهاجرين والأنصار حول من يَخْلُفُ الرسولَ ﷺ في رعاية شئون المسلمين . . أيكون هذا الخليفة من بين الأنصار وهم أهل المدينة الذين آوَوا الرسولَ وآزَرُوه ونصروه، أم من المهاجرين وهم من أهل مكّة السابقين في الإسلام الذين صبروا مع الرسول، وتركوا ديارهم وأموالهم نُصْرةً لدين اللّه؟

ووقف سعد بن عبادة سيد الخزرج خطيباً في الأنصار يدعوهم إلى اختيار خليفة رسول اللّه من بينهم . وكان ممّا قاله :

«يا معشر الأنصار، لكم سابقةٌ في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب، إن محمداً -عليه السلام- لَبثَ بضْعَ عَشْرَة سنةً في قومه يدعوهم إلى عبادَة الرحمن وخَلْع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلا رجالٌ قليلٌ . . استبِدوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم . . » .

وأسرع عمر بن الخطاب ومعه أبو بكر الصديق وأبو عبيدة بن الجراح -رضي اللّه عنهم- إلى السقيفة، وقام أبو بكر في الناس خطيباً، فذكر فضل الأنصار ومركزهم في الإسلام، وكان مما قاله:

«وأنتم معشر الأنصار ممن لا ينكر فضلهُم في الدين ولا سابقتهُم العظيمةُ في الإسلام، رَضِيكُمُ اللهُ أنصاراً لدينه ولرسوله، وجعل إليكم هجرته، وفيكم حلّ أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم، فنحنُ الأمراء وأنتم الوزراء. فلا تفتاتون بمشورة، ولا تُقْضى دونكم الأمورُ..».

وقام عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ وأدْلىَ بالحجة على أن هذا الأمر لقريش، وكان مما قاله: «والله، لا ترضى العربُ أن يؤمروكم وبيتها من غيركم».

وبايع عمرُ أبا بكر بالخلافة، ثم بايعه أبو عبيدة، وسبقهما بشير بن سعد، ثم تتابع المهاجرون والأنصار يبايعونه.

- بيعة عمر بن الخطاب:

خَشيَ أبو بكر -رضي الله عنه- عندما داهَمَهُ مرضُ الموت أنْ يختلفَ المسلمون حَوْلَ مَنْ يتولّى الخلافة بَعْدَهُ، فرأى أنَ يحتاط لهذا الأمر. فنظر في أصحابة ليَتَخَيَّرَ مِنْ بَيْنِهم رجُلاً يكون شديداً في غير عُنفٍ ليِّنًا في غير ضَعْفٍ.

وَوَقَعَ اختيارُهُ عَلَى عُمَرَ بن الخطّاب، وَمَعَ ذَلكَ لَمْ يَشَأ أنْ يَنْفَرِدَ بالرّأي، فاستدعى بَعْضَ ذَوي الرّأي الرَّاجح، وسألهم رأيهُم في عُمَرَ فأثْنوا عليه ووافقوا على اختيارِهِ، وأشرف أبو بكر على النّاسِ وهُوَ في شِدَّة مرضِهِ وهو يقول:

«أترضَوْنَ بمَنْ أستخلفُ عليكم؛ فإنّي واللّه ما ألَوْتُ من جهد الرّأي، ولا ولَّيْتُ ذَا قرابة، وإني قد استَخْلفتُ عليكم عُمَرَ بنَ الخطابِ فاسمعوا له وأطيعوا».

فقالوا: «سَمعْنا وأطَعْنا».

- بيعة عثمان بن عفان:

لما طُعنَ عمرَ بنُ الخطّاب -رَضيَ اللّه عنْهُ- خَشيَ أصحابُ رسول اللّه ﷺ أن يقضيَ عمرُ نَحبَهُ دُونَ أن يَسْتَخْلفَ أحداً، فذهبوا إليه وقالوا: «يا أميرَ المؤمنين لو عَهدْتَ عهداً. فقال: «عليكم هؤلاء الرهطَ الذين ماتَ رسولُ اللّه ﷺ وهو عنهم راضٍ وقال فيهم إنهُم منْ أهلِ الجنّة: عليّ ابن أبي طالب، وعثمانَ بن عفانٍ، وسعد بن أبي وقّاص، وعبد الرحمن ابن عَوْف، والزبير بن العوّام حواريّ رسول اللّه وابن عَمّته، وعبد اللّه بن عُمَرَ على ألا يكون لَهُ من الأمر شيء».

وأوْصى بأن تكونَ الخلافةُ للرّجل الذي يقع عليه الاختيارُ من الفريق الذي في صفِّه عبد اللّه بن عمر في حال تساوي الأصوات. وكان مما قاله للمقداد ابن الأسود: «إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرّهطَ في بيتي حتى يختاروا رجلاً منهم».

وقال لِصُهَيْب:

«صَلِّ بالناس ثلاثة، وادْخل عليهم، عَلي وعثمان والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وطَلحة إن قَدِمَ، وأحضر عبد اللّه بن عمر ولا شيء لهُ منَ الأمرِ، وقُمْ على رءوسهم، فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحدٌ فاشْدَخْ رأسهُ بالسيف وإنْ اتفق أربعة ورضوا رجلاً منهم وأبَى اثنان فاضرب رأسيهما، فإن رضيَ ثلاثةٌ رجلاً منهم وثلاثةٌ رجلاً منهم فحكِّموا عبد اللّه بن عمرَ، فأيّ الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد اللّه بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عمّا اجتمع عليه النّاسُ».

وبعد وفاة عمر تولى عثمانُ بنُ عفانَ الخلافةَ، وقد تولى عبد الرحمن ابن عوف المهمة التي أوصى بها عمر.

- بيعة علي بن أبي طالب:

كان أكثرُ الصحابة متفرقين في الأمصار عند وفاة عثمان بن عفّان رضي اللّهُ عنه. وكان عليٌّ هو المرشحَ الأوّلَ للخلافة. فقد كان أوّلَ من آمن بالنبيِّ مِنَ الصِّبيان، وهو ابن عمِّ النبيِّ، وزوج ابنته، السيدة فاطمة الزهراء.

وكان عمر لا يعمل عملاً دون مشورة عليٍّ، كما أنَّ عثمان بنَ عَفَّان كان يستشيرُه في كثير من الأمور.

وكان عليٌّ بَيْنَ مَنْ رشَّحَهُمْ عمرُ لخلافته، وكادت الخلافَةُ أن تناله في الحوار الذي حَسَمَهُ عبدُ الرحمنِ بن عَوْف بَعْدَ مَقْتَلِ عمرَ بن الخطاب، لولا أنه كانَ مُتَحَفظاً في إجابته عندما طلب إليه عبدُ الرحمن أن يَعدَ بالعملِ بكتابِ اللّه وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده؛ إذ كان جوابهُ عند ذاك: «أرجو أن أفعل، وأعْمل، وأعْمَلَ بِمَبلغِ علمي وطاقتي». على حين أجاب عثمانُ عند ذاك: «نعم!».

ومن ثمَّ تَمَّت بَيْعَةُ عَلِي بَعْدَ وفاةِ عثمانَ بن عفَّانَ رَضيَ اللّه عنهما.

- بيعة يزيد بن معاوية:

استعمل معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية -وكانت عاصمة الخلافة الإسلامية فيها دمشق- الدهاء لكي يثبت الخلافة من بعده لابنه يزيد، فكان «يعطي المقارب، ويداري المباعد ويلطف به، حتى استوثق له أكثر الناس» وبايعوا ابنه يزيد.

ولما تمت بيعة أهل الشام والعراق ذهب إلى (المدينة) لأخذ البيعة لابنه، فقابله الحسن بن علي وعبد اللّه بن الزبير وعبد اللّه بن عمر.. وتكلم معهم في شأن البيعة، فقال ابن الزبير: نخيِّرك بين ثلاث خصال. قال: اعرضهن. قال: تصنع كما صنع رسول اللّه ﷺ، أو كما صنع أبو بكر، أو كما صنع عمر. قال: وماصنعوا؟ قال: قبض رسول اللّه ﷺ ولم يستخلف أحداً، فارتضى الناس أبا بكر. قال: ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف. قالوا: صدقت. فاصنع كما صنع أبو بكر؛ فإنه عهد إلى رجل

من قاصية قريش ليس من بني أمية، فاستخلفه. وإن شئت فاصنع ما صنع عمر، جعل الأمر في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه. قال معاوية: هل عندك غير هذا؟ قال: لا. فقال معاوية: فأقسم باللّه، لئن رد عليَّ أحدُكم كلمةً في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يُبقِيَنَّ رجلٌ إلا على نفسه ثم دعا بصاحب حرسه بحضرتهم. فقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مع كل واحد سيف، فإن ذهب رجل منهم يرد على كلمة تصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما. ثم خرج وخرجوا معه حتى رقي المنبر، فحمد اللّه وأثنى عليه، ثم قال: إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، لا يبتَز أمر دونهم، ولا يقضى إلا عن مشورتهم، وإنهم قد رضوا وبايعوا اليزيد، فبايعوا على اسم اللّه. فبايع الناس.. وهكذا تمت البيعة ليزيد بن معاوية في المدينة المنورة تحت أسنة السيوف، وانتقلت الخلافة من الشورى إلى الملكية الوراثية.

- مجلس الملك:

اتخذه الخلفاء الفاطميون بمصر لينعقد فيه المجلس الذي يبحث شئون الخلافة بحضرة الوزير وقاضي القضاة وداعي الدعاة وقائد الحرس وغيرهم من أصحاب الرأي والمشورة.

فقد بنى المعز لدين الله الفاطمي (قاعة الذهب) لينعقد فيها هذا المجلس. وكانت تلك القاعة تُوَضِّحُ الأبهة التي كانت تصاحب الخلفاء الفاطميين في مجالسهم؛ فقد كانت مؤثثة بأثاث فخم ومُزَيَّنَةً بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب. وكانت كلها من رسم ولون واحد.

وفي صدر (قاعة الذهب) حَشِيَّةٌ عليها عرش الخليفة المحجوب بستور، حَتى إذا جلس الخليفة وانعقد المجلس رُفِعَتْ تلكَ الستورُ.

وكانت العظمة الملكية تظهر بأجلى مظاهرها إذا ما انفرج الستران الحريريان بفعل اثنين من الأساتذة بأمر من رئيس القصر الذي كان يحملُ لقب (زمام القصر)، فيظهر شخص الخليفة وحوله جماعةٌ من القُرَّاء يأخذون في ترتيل آيات القرآن الكريم بأنغام عالية، ثم يأتي (حامل الدّواة) فيضعها على طرف الحشية المخصصة لها.

وكان زمام القصر وصاحب بيت المال والحجاب والأمناء يأخذون أمكنتهم عند الأبواب في الوقت الذي يكون الحاضرون قد أخذوا فيه أمكنتهم المخصصة لهم. وعند ذاك يأخذ أحدُ الأمناء في تقديم الأشخاص الذين يرى تقديمَهمُ للخليفة.

وكان الوزير أول من يُقَدَّمُ إلى الخليفة، فيخطو إلى الأمام ثم يُحَيِّي الخليفة بتقبيل يديه ورجليه، ويتراجع إلى مكانه، ويظَلُّ واقفاً. ثم يُؤذَنُ له بوسادة يجلس عليها إلى يمين الخليفة، ثم يتلوه قاضي القضاة فيقترب من الخليفة ويحييه برفع يده اليمنى ويشير بمسبحته قائلاً: «السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته»

وإذا رأى الوزير أن يشاور الخليفة في أمر من الأمور اقترب منه واعتمد على سيفه، ثم يشرع في محادثته. وكان مجلس الملك ينعقد لمدة ثلاث ساعات في العادة، فَتُقَدَّمُ فيه الأمور المهمة لبحثها واعتمادها من الخليفة.

وللوزير أن يقترح خَلْعَ الخِلَعِ أو إسنادَ المناصب المختلفة إلى من يُقَدِّمُ أسماءهم.

فإذا انفرط عقد المجلس انصرف الحاضرون، وانصرف الوزير في آخرهم بعد أن يلْثمَ يَدَيْ مولاه ورجليه مرّةً ثانية، ثم يركب إلى داره يحفُّ به سائر أعضاء المجلس. ثم ينزل الخليفة عن سرير المُلْكِ، ويغادرُ الإيوان فَتُسْدَلُ الستور، ويقفل البَابُ.

- موكب الخليفة للصلاة:

وكان قاضي القضاة أيام حكم الفاطميين يذهب إلى المسجد يوم الجمعة قبل وصول الخليفة بقليل، ويقوم بتبخير منبر المسجد والقبة التي يقف الخليفة تحتها وقت إلقاء الخطبة. وكان الخليفة يرتدي في ذلك اليوم ثوباً من الحرير الأبيض ويتعمم بعمامة من الحرير الأبيض الرقيق، ويحمل قضيب الملك بيده، ويحفُّ به عددٌ كبيرٌ من حرسه الخاصِّ ومن الجنود والأشراف، ويتْبع هؤلاء جمع غفيرٌ من النّاس.

وكان الخليفة يركب بين قرع الطبول ورنين الصنوج وقراءة القرآن بنغمات شجيَّة حتّى يصل إلى قاعة الخطابة وهي القاعة الخاصة باستقباله، ويحرسها قائدُ القُوّاد وكبير الأمناء ونخبةٌ من حرس الخليفة، ويَظَلُّ فيها حَتى ينتهيَ الأذان، وحينذاك يدخل قاضي القضاة ويقول:

السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضي ورحمةُ الله وبركاته . . الصلاةُ يَرحمكَ الله».

فيخرج الخليفُة وحوله الأستاذون المحنَّكون، ويتبعه وزيره وجماعة من حرسه مدججين بالسلاح، فينتشرون بين قاعة الخطابة والمنبر . . أما الخليفة فيستمر في سيره حتّى يأخذ مكانه تحت قبة المنبر. ويقف الوزير على باب المنبر ووجهه تجاه الخليفة . . فإذا أومأ إليه صعد فقبّل يَدَيْ مولاه ورجْلَيه، وزَرَّ السترَيْن عليه. وبذلك يكونُ المنبرُ والقُبَّةُ كالهودج، ثم يترك الوزير، وينتظر على باب المنبر.

وكان الخليفة يختم خطبته بالدعاء للوزير وبنَصْرِ الجيش وخذلان الكفار والمشركين . . فإذا فرغ من خطبته قال: «اذكروا الله يذكركم».

ثم يصعد الوزير فيحُلُّ السترَيْن، ويظلُّ هو وقاضي القضاة على الباب، ويقوم الأستاذون المحنكون وكبار الموظفين العسكريين والمدنيين بحراسة المقصورة. بعد هذا يأخذ الخليفة في الصلاة، ويُبَلِّغُ الوزير عنه، ثم قاضي القضاة والمؤذنون.

فإذا ما انتهت الصلاة يخلو الجامع من النّاس، ويخرج الخليفة يحيط به الوزير عن يمينه وقاضي القضاة وداعي الدُعَاة عن يساره وحرسه الخاص.

ويعود في موكبه على الهيئة التي اتخذها في ذهابه إلى الجامع.

نماذج من الخلفاء

- الأمين «١٩٣-١٩٨هـ/ ٨٠٩-٨١٣م» :

تمت البيعة للأمين بعد وفاة أبيه الرشيد طبقاً للعهد الذي عهد به الرشيد إلى أبنائه الثلاثة. وكان الرشيد قد جعل ولاية عهده للأمين فالمأمون فالقاسم.

لكن الأمين ما كاد يتولّى الخلافة حتّى تَنكر لوصية أبيه فخلع أخويه المأمون والقاسم، وبايع لابنه موسى بالخلافه من بعده.

وكانت تلك المؤامرة التي دَبّرَها الأمين ووزيره سبباً في وضع النهاية المأساوية لخلافته؛ فقد زحفت جيوش المأمون من خراسان إلى بغداد، وحاصرت أسوارها ودَقتْ أبوابها، فانفض أتباعُ الأمين عنه، وحاول الأمين أن يستسلم، لكن نفراً من المهاجرين قتلوه. وانتهى بذلك حكم الأمين.

وخلال حكم الأمين حاول علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية وشهرته (السفياني) أن يُعيدَ مجد بني أمية في الشام، وتغلب على عامل الأمين في دمشق، واحتل المدينة ومدّ نفوذَه إلى ما حولها من البلاد، لكن محاولته فشلت آخر الأمر بسبب نزاعات داخلية بين رجاله.

كان الأمين -كما يحكي عنه المؤرخون- كثير اللهو واللعب، منقطعاً إلى ذلك، مشتغلاً به عن تدبير مملكته، وبعث إلى جميع البلدان يطلب المُلهين

ويضمهم إلى حاشيته، واحتجب عن إخوته وأهل بيته، وكان ينغمس في المرح والخلاعة إلى قمته، وظلّ سادرا في ضلاله ومجونه حتّى الساعة التي كان فيها عرشه يهتزُّ من تحته، والشدّةُ تحيط به من كل جانب.

- **الرشيد:** «١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٩م»:

هو هارون الرشيد شقيق الهادي وأمهما الخيزران، وأبوهما المهدي.

وقد اكتملت في عهد الرشيد للدولة ألوان من العظمة والقُوَّة والمجد العلمي فاحترمتها الدول المجاورة وكان الاستقرار طابع الدولة، والعظمةُ طابع الخليفة.

وكان الرشيد من أفاضل الخلفاء، وكان فصيحاً وعالماً وكريماً، وكان يحجُّ سنةً ويغزو سَنَةً طيلة خلافته، عدا سنوات قليلة. وكان يصلي في كُلِّ يَوْم مائة ركعة، وَحَجّ ماشياً، وكان يتشبه في أفعاله بَجدِّه المنصور.

يَقول ابن طباطبا في كتابه (الفخري) عن دولة الرشيد:

كانت دولة الرشيد من أحسن الدُّول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخَيْراً، وأوسعها رقعة، فقد جَبَى الرشيدُ معظم الدنيا وكانَ أحدُ عُمّاله صاحبَ مصر، ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء ما اجتمع على باب الرشيد. وكان يَصلُ كُلَّ واحد منهم أجْزَلَ صلة ويرفَعُهُ إلى أعلى دَرَجَة.. وكان أديباً شاعراً، راويةً للأخبار والآثار والأشعار، صحيح الذوق، مهيباً عنْدَ الخاصَّة والعامّة. والرشيد هو الذي أسس (بيت الحكمة) الذي كان المنار للثقافة والفكر في

العالم، والذي انبعث منه الشعلةُ التي أضاءت الطريق للنهضة الأوربية فيما بعد.

وفي عهده وصلت بغداد إلى قمة مجدها، ومنتهى فخارها وامتدت الأبنية في كل جانب منها امتداداً عظيماً حتّى صارت بغداد كأنها مُدُنٌ متلاصقة تبلغ الأربعين، وبلغ سكانها نحو مليون نسمة، وكانت مركزاً تجاريا عظيماً وسوقاً رائجة تنهال عليها البضائع والأموال من كل صوب.

وفي عهد الرشيد ظهرت دولة الأدارسة ببلاد المغرب، ولكي يقف الرشيد في وجه تلك الدولة فإنه أقطع إبراهيم بن الأغلب منطقة تونس، وكان ذلك بداية قيام دولة الأغالبة.

ولقد آثر الرشيد ابنه محمداً الأمين بولاية العهد رغم أنه كان أصغر سنا من أخيه المأمون إرضاء لزوجته زُبَيْدَة أم الأمين؛ فقد كان لها عنده حَظْوَةٌ خاصة.

وفي عهد الرشيد كانت نكبة البرامكة، فأمر بقتل جعفر بن يحيى وَحُبِسَ يحيى في منزله، وحُبِس الفضل بن يحيى في بعض منازل الرشيد، وأخذ ما لديهم من مال وضياع.. ومَثّل الرشيد بجثة جعفر بن يحيى.. وكان وراء تلك النكبة دسائس وزيره الفضل بن الربيع. لكن ابن خلدون يرى أن نكبة البرامكة كانت بسبب استبدادهم بشؤون الدولة، بينما يروي ابن خلكان أنَّ سبب النكبة هو طول أيامهم مع خلفاء الدولة العباسية منذ بدئها حتى عهد الرشيد.

- **عبد الرحمن الداخل** «١٣٨ - ١٧٢هـ/ ٧٦٠ - ٧٨٨م»:

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك. يرجع نسبه إلى مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، وجدهُ هشام بن عبد الملك، تاسع خلفاء الدولة الأموية (١٠٥ - ١٢٥هـ/ ٧٢٣ - ٧٤٢م).

هاجر إلى الشمال الإفريقي عقب إعلان الخلافة العباسية عام ١٣٢هـ، في الوقت الذي كان فيه بنو العباس يستأصلون الأمويين. وقد وجد عبد الرحمن في الشمال الإفريقي المؤازرة من أنصار الأمويين هناك.

وأدرك عبد الرحمن أن فرصته لتحقيق طموحاته السياسية توجد في الأندلس. كان قد مضى على وجود المسلمين بالأندلس إذ ذاك قرابة الخمسين عاماً، ومع ذلك كان هناك خلاف لا ينقطع بين المسلمين حول من يتولى السلطة والإمارة في الأندلس. وكان الفريقان المتنازعان ينقسمان إلى يمنيين ومُضَرِيِّين، ولقد حُسِمَ الخلافُ بينهما باتفاق على أن تكون الإمارة عاماً للمضريين وعاماً لليَمَنيِّين.. لكن يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفهرِيِّ آخر والٍ أموي -وكان من المضريين- أراد أن يستمر في السلطة، فحارب اليمنيين وقتل منهم أعداداً كبيرة.

كان عبد الرحمن الداخل قد وصل إلى الأندلس عام ١٣٠هـ/ ٧٤٧م، وانحاز إلى جانب اليمنيين في ذلك الصراع، فجمع حوله كُلَّ من كان من بني أمية بها، وانضم إليهم الساخطون على يوسف الفهرِي، فتجمع بذلك جيش كبير لعبد الرحمن.. وتقابل عبد الرحمن والفهري في

موقعة (المصارة) عام ١٣٨هـ/ ٧٦١م، وانتهى الأمر بهزيمة الفهري، ودخل عبد الرحمن العاصمة (قرطبة) . . وانتصر بعد ذلك على حملة بعث بها العباسيون للقضاء عليه عام ١٤٦هـ، وأصبح الحاكم الذي لا يُنَازعُ في الأندلس.

وأقام عبد الرحمن الخلافة الأموية في الأندلس، وتوراث الحُكْمَ فيها أبناؤه، وظلّت هذه الخلافةُ قائمةً لمدة ثلاثة قرون تقريباً من عام ١٣٨-٤٢٢هـ/ ٧٦٠-١٠٣١م، وكانت قرطبة عاصمةَ تلك الخلافة.

أهم أعماله:

شغلت الحروب المتتالية وقت عبد الرحمن ، واستنفدت جهده، ولكنه مع ذلك أسهم إسهاماً كبيراً في خدمة الحضارة والثقافة؛ فقد جمل عبد الرحمن مدينة قرطبة، وأحاطها بسور ضخم، وحفر قناة تمدها بالماء العذب، وشيّدَ بها المباني الضخمة والحمامات والفنادق، وأنشأ البساتين العديدة على ضفَّة الوادي الكبير، وبنى قصراً كبيراً أسماه (الرصافة).

وأنشأ عبد الرحمن جامعاً عظيماً بمدينة قرطبة لا يزال حتى الآن ينطق بالعظمة والجلال، وقد أنفق عليه نفقات كثيرة.

اهتم عبد الرحمن بشئون الزراعة فشق الترع، وأنشأ الطرق، كما اهتم بالشئون التعليمية، فبنى المدارس في عواصم الأندلس، وشجع العلماء والطلاب، وجذبت قرطبة الكثير من طلاب العلوم من أوربا ومصر والشام والعراق.

ويروى أن أبا جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٧٥-٨٥٣م)، أطلَق عليه اسم (صقر قريش) وقال: «عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلداً أعجميا مفرداً، فَمَصَّرَ الأمصار وَجَنَّدَ الأجنادَ، ودَوَّن الدواوين، وأقام مُلْكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدَّة شكيمته».

- عبد الرحمن الناصر «٣٠٠هـ-٣٦٠هـ/ ٩١٢-٩٧٠م»:

هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، وقد عرف باسم عبد الرحمن الناصر أو عبد الرحمن الثالث؛ فقد سبقه إلى هذا الاسم عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) الحاكم الأموي الأول، مؤسس الدولة الأموية في الأندلس، كما سبقه عبدالرحمن بن الحاكم، وهو عبد الرحمن الثاني أو الأوسط (تولى الحكم عام ٢٠٦هـ/ ٨٢١م).

وعبد الرحمن الناصر عهدَ جدّه إليه بالحكم في الأندلس ليتولى هذه المسؤولية بعده دون أبيه الذي قتل قبل نهاية الجدّ، ومن ثَمَّ آلت مسؤوليات الحكم إليه في الفترة من ٣٠٠ هـ - ٩١٢ م حتى ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م.

وعبد الرحمن الناصر بَطَلٌ من أبطال التاريخ الإسلامي بالأندلس تَوَلّى مسؤولية الحكم في ظروف بالغة الصعوبة. وقد وَصَفَ المقري في الجزء الأول من كتابه «نفح الطيب» حال الأندلس عند تولية عبد الرحمن، فقال:

«وكانت الأندلس مضطربة بالمخالفين، مضطربة بنيران المتغلبين، فأطفأ عبد الرحمن تلك النيران، واستنزل أهل العصيان، وقد خاض غمار

حروب طويلة ضد هؤلاء، وضد اللصوص والمارقين، وأخضع هؤلاء وأولئك. كما هاجم المسيحيين فَأَذَلَّهُمْ، وأعادهم إلى معاقلهم، فسَلَّمَ له البربرُ والعربُ، وخضع له الثُوارُ في كُلِّ الجهات».

وقد خضعت لعبد الرحمن الناصر أكثر الولايات في الأندلس، والتفَّ حَوْلَهُ أكثر الحكام.

وعبد الرحمن الناصر هو أول من حمل لقب خليفة من الحُكَّام الأمويين في الأندلس. ولقد عاب على من سبقه من الحكام الأمويين هناك عدم تمسكهم بهذا اللقب. وقد أصدر منشوراً في عام ٣١٧هـ/ ٩٢٩م، جاء فيه: «وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروجُ الكتب عَنّا وورودُها إلينا بذلك؛ إذ كلُّ مَدْعُوٍّ بهذا الاسم مُنْتَحلٌ له ودخيلٌ فيه، مُتَّسِم بما لا يستحقه، وكان هذا اللقبُ حقّا واسماً ثابتاً أسقطناه».

ولقد أصبح عبد الرحمن الناصر سيِّدَ الأندلس كُلِّها، فالأمراءُ يدينون له بالطاعة التامِّة، والممالك المسيحية خَرَّت أمامه مهزومةً، أو عقدت معه صلحاً بشروطه. وكانت هذه الممالك تنظر له نظرتها إلى السيِّد الأعلى، بل كانت تحتكم إليه فيما يَدبُ بينها من خلافات.

ويقول ابن خلدون عن عبد الرحمن الناصر: «إنه أوطأ عساكر المسلمين من بلاد الفرنج ما لم يطأه العسكر في أيام سلفه، ومدّت إليه أمم النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان، وأوفدوا إليه رسلهم وهداياهم من رومة ومن القسطنطينية على سبيل المهادنة والسلم..».

وكان لعبد الرحمن الناصر أثر فريد في خدمة الحضارة الإسلامية بالأندلس.

- **المأمون** «١٩٨-٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٣٣م»:

تولى المأمون الخلافة بعد صراع دموي مع أخيه الأمين، عندما غدر الأمين بوصية أبيه بأن تكون الخلافة للمأمون من بعده. وكان المأمون- قبل انتصاره على الأمين وتوليه أمور الخلافة- قد عَيَّنَهُ أبوه هارون الرشيد والياً على خراسان وما يتصل بها حتّى همدان.

وقد تسَلَّمَ المأمونُ تركَةً مُثْقَلَةً مملوءة بالمتاعب والأحداث بعد مقتل أخيه الأمين؛ فقد كان عليه أن يخضع العديد من الثورات التي قامت ضد الدولة إبّان الفتنة التي أثارها أخوه الأمين. وكان ضمن تلك الثورات الثورة التي قام بها بعض المصريين، وقد شهدوا الخلافات التي وقعت بمصر بين عرب الشمال وعرب الجنوب. ووَجَّه المأمون عبد الله بن طاهر للقضاء على هذه الثورة، ثم اضطر المأمون أن يذهب بنفسه إلى مصر لإصلاح الأحوال وإعادة الأمر إلى نصابه.

وعمل المأمون على نقل الخلافة من ولد بني العباس إلى ولد عَليّ بن أبي طالب، وأمر بخلع السواد شعار العباسيين ولبس الخُضْرة شعار العلويين.. لكنه أرغم على الرجوع عن محاولته هذه، وعاد لشعار بني العباس.

وفي عهد المأمون قامت الدولة الطاهرية في خراسان فتمّ إعلان طاهر بن الحسين أميراً لخراسان عام ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م، واستمرّتْ هذه الدولة أربعة

وخمسين عاماً حتى عام ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م، وكذلك قامت ببلاد اليمن الدولة الزياديَّةُ عندما أعلن تعيين محمد بن إبراهيم الزيادي (من ولد زياد بن أبي سفيان) أميراً لبلاد اليمن وتهامة، وكان ذلك عام ٢٠٣هـ/ ٨١٨م، وذهب محمد بن إبراهيم إلى اليمن وفتح تهامة، واختط مدينة زَبيد ومات عام ٢٤٥هـ، وتوارث أولاده الملك من بعده، فأصبحت لهم اليمن دولة شبه مستقلة حتى عام ٤٠٩هـ/ ١٠١٨م.

وكانت دولتا الأدارسة في المغرب والأغالبة في تونس قد قامتا قبل ذلك في عهد الرشيد.

كان المأمون من ألمع الخلفاء العباسيين ولولا حكمته وكفاءته لتعرضت الدولة الإسلامية لخطر الزوال والانحلال، وكان محبا للعلم والعلماء، وجمع في بيت الحكمة كنوز العلوم الأجنبية، وتوفي وهو غازٍ بطرسوس عام ٢١٨هـ/ ٨٣٣م.

- **المعتصم «٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤٢م»:**

ابن هارون الرشيد، عهد إليه المأمون بولاية العهد بعد أن خَبَرَه والياً على الشام ومصر، وتولّى الخلافة عقب وفاة أخيه المأمون عام ٢١٨هـ/ ٨٣٣م، وقد فَضَّلَهُ على ابنه العباس لما عهد فيه من الكفاءة والشجاعة، ويُعدُّ عصر المعتصم امتداداً لعصر المأمون، وهو الذي أدّب الروم وثأر منهم.

وقد اضطر المعتصم أن يعتمد على عنصر جديد في حروبه الطويلة. وكان هذا العنصر هم الترك والديلم الذين استقدمهم المعتصم من بلاد ما

وراء النهر وجعل منهم حرسه الخاص في أول الأمر، ثم أدخلهم في جيشه المحارب، فنالوا تقدير الخليفة. وقد أوقع المعتصم الدولة الإسلامية بذلك في شر مرير تحت رحمة هذه العناصر الجديدة، بعد وفاته.

وكان اعتماد المعتصم على الترك سبباً في قيام مؤامرة لخلعه وتعيين العباس ابن أخيه المأمون في الخلافة بدلاً منه. لكن المؤامرة لم تنجح.

وتوفي المعتصم عام ٢٢٧هـ/ ٨٤١م، بعد أن عهد بالخلافة لابنه (الواثق).

- **الواثق** «٢٢٧-٢٣٢هـ/ ٨٤٢-٨٤٧م»:

تولّى الخلافة عام ٢٢٧هـ، بعد موت والده الخليفة المعتصم ونشأ مقتدياً بعَمِّه المأمون في صفاته واتجاهاته، وكان الواثق من أفاضل خلفاء بني العباس.

لم يختر الواثق أحداً لولاية عهده خلال حياته. وكان الترك قد وصلوا في الدولة إلى سطوة ونفوذ، حتّى إن الواثق خلع على القائد التركي (أشناس) لقب السلطان، فنال بذلك مكانة تتعدّى مهام واجباته العسكرية.. وتُوُفِّيَ الواثق في سن مبكرة، فقام القائد التركي وصيف الذي خلف أشناس بتعيين محمد بن الواثق خليفة على المسلمين وكان لا يزال صبيا، ثم عاد وصيف وعزل محمدا وَعين بدلاً منه عَمَّه جعفرا الذي لُقِّب بـ المتوكل على الله. وانتهى الأمر إلى ثورة الأتراك ضد جعفر فقتلوه، وأصبح الأمر بأيديهم.. وبدأ بذلك عصر ضعف الخلافة.

القضـــاء

- البَيِّنَـــةُ :

البينة : هي الدليل يُقيمه المدعي لإثبات الحق الذي يريده من المدعَى عليه .

قال تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾[البينة - ٤]

وتكون البينة بدليل مادي، كوثيقة مكتوبة بخط المدعَى عليه أو أي شيء يدل على صدق المدعِي بالمطالبة بالحق .

قال رسول الله ﷺ : «البينة على المدعي واليمين على من أنكر » . البيهقي والطبراني

وإذا عجز المدعي عن إقامة البينة على المدعى عليه فليس له عنده غير اليمين .

فعن وائل بن حجر أن النبي ﷺ قال للكندي : «ألك بينة؟ قال : لا . قال . فلك يمينه . فقال : يا رسول الله، الرجل فاجر لا يبالي على ما حلف، وليس يتورع من شيء فقال ﷺ «ليس لك منه إلا ذلك» . رواه مسلم

وفي اللغة : البينة : هي الحجة الواضحة، وهي من الفعل : بيّنَ أو تبيَّن بمعنى ظهر واتضح . وفي المثل العربي «بَيَّن الصبح لذي عينين» . وبَيَّن، يبين، تبيينا، وتبيانا : أي وضّح وأظهر الشيء . والبيّن : الواضح الظاهر .

- الخَصْـــمُ :

الخصْم: هو أحد طرفي الخصومة في قضية من القضاء المتنازع عليه، وهو يعتقد أنه على حق في موقفه. قال تعالى: ﴿ **هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ** ﴾[١٩- الحج]

والإسلام يحرص على نشر المحبة والوئام بين أبناء المجتمع، ولذلك ينبغي أن يلجأ الخصمان إلى أهل الخير والحكمة للمصالحة بينهما، ولا يذهبان إلى القاضي إلا للصلح.

ويحرص الخصمان كلاهما على الصلح الذي به يستقيم الحق، ويسود العدل في المجتمع؛ لأن من سمات المؤمن العفو والتسامح؛ قال تعالى: ﴿ **وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ** ﴾ [٢٣٧- البقرة]

(انظر: «القضية»)

ويحرص عقلاء الناس على نشر الصلح بين المتخاصمين؛ لأن المؤمنين إخوة. قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾

[١٠- الحجرات]

وإن اشتدت الخصومة بين المتخاصمين، وباءت محاولات أهل الخير بالفشل رجعوا إلى حكم الله. قال تعالى: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾

[٩ الحجرات]

وفي اللغة: الخَصْمُ: المخاصم أو المنازع في قضية ما، يعتقد أنه على حق في موقفه، فهو أحد طرفي الخصومة.

والخَصْمُ من: خَصمَ خَصْماً وخصاماً فهو مخاصم وخصيم، وجمعه خُصماء.

والخصيم: الشديد الخصومة.

واختصم القوم: خاصم بعضهم البعض وتنازعوا.

- دستور القضاء

الدستور: هو مجموعة المبادئ التي تنظم العلاقات بين الناس في جماعة معينة، ويتعاهد أفراد الجماعة على الالتزام به، والعمل وفق ما ينص عليه.

وقد كان الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أول من سَنَّ دستوراً للقضاء ليسير القضاة على هديه في معالجة القضايا التي تعرض لهم، وفي الفصل بين المتخاصمين. وقد بعث به إلى أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - وإلى غيره من القضاة. وقد جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس (هو اسم أبي موسي الأشعري) سلام عليك. أما بعد: فإن القضاء فريضة مُحكمة، وسنَّة متَّبعة، فافهم إذا أدْليَ إليك (رُفع إليك). آسِ بين الناس (اعدل وساو) في وجهك ومجلسك وعدلك؛ حتى لا يطمع شريف

في حَيْفك (ظلمك)، ولا ييأس ضعيف من عدلك. البينة على من ادّعَى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً، أو حرَّم حَلالاً، ولا يمنعنَّك قضاء قضيتَه بالأمس فراجعت فيه اليوم عقلك وهُديت فيه إلى رشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأشباه والنظائر وقس الأمور بنظائرها .. وإياك والقلق والضجر والتأذي للناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الزخر».

واضح من هذا النموذج الذي قدمه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب منذ ألف وأربعمائة عام حرص الحاكم على العدل والفهم والحكمة والاتزان في الحكم؛ حتى يزدهر العمران في البلاد، وتسعد الرعية باطمئنانٍ في نفوسهم جميعاً؛ حيث يستظلون بالعدل الشامل.

والدستور في اللغة: القاعدة التي يعمل بمقتضاها. وهو أيضاً الدفتر تكتب فيه أسماء الجند ومرتباتهم.

وفي الاصطلاح المعاصر: مجموعة من القوانين الأساسية التي تبين شكل الدولة ونظام الحكم فيها ومدى سلطانها إزاء الأفراد.

ودستور أمة محمد ﷺ هو القرآن الكريم.

دستور: مفرد. دساتير: (محدثة) جمع.

- الدعـــوى :

الدعوى : طلب يقدمه شخص إلى القضاء يطلب فيه إثبات حق له على غيره من الناس . . ومن يطلب ذلك يسمى «المدَّعِي» .

وإن تقدم الحر البالغ العاقل الرشيد بدعوى إلى القضاء يطلب فيها شيئاً من غيره، فيثبت هذا الحق إذا أقرّ به المدعَى عليه، أو بشهادة الشهود العدول، أو اليمين أو الكتابة الموثقة الثابتة؛ حيث لا تثبت الدعوى بغير دليل قطعي؛ فالدليل الظني لا يتحقق به اليقين. قال الحق تعالى : ﴿ **وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** ﴾

[١٨- النجم]

عن ابن عباس -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال : «لو يُعطى الناس بدعواهم لادّعى ناس دماء رجال وأموالهم . ولكن اليمين على المدعى عليه» . أحمد ومسلم

وقد روى البيهقي والطبراني عن رسول الله ﷺ أنه قال : «البينة على المدعي واليمين على من أنكر» . رواه الترمذي

والإسلام في كل الأمور يتحرى الحق، ويستهدف العدل، وبذلك يضيق باب الدعاوى التي قد تؤثر بالوهن على عرى المحبة والوئام التي يحرص الإسلام على انتشارها بين أبناء الأمة .

وفي اللغة : الدعوى مفرد، جمعه دعاوى، دعاوٍ، وهي طلب يقدمه إنسان إلى القاضي يطلب به إثبات حق على غيره . دعا فلاناً : صاحَ به وناداه .

وادّعى فلانٌ كذا : تمناه وطلبه لنفسه ، ونَسَبَه إلى نفسه .

- ديوان المظالم

ديوان المظالم : محكمة تعرض عليها القضايا التي يرى أصحابها أن القاضي لم يحكم فيها بينهم بالعدل ، كما تعرض عليها أيضاً القضايا التي تقام ضد أهل الجاه والسلطان من علْيَةِ القوم التي قد يعجز القاضي عن تنفيذ أحكامه عليهم ، وهي مثل (محكمة الاستئناف العليا) في هذا العصر .

فالهدف من هذه المحكمة منع تعدي أهل القوة والنفوذ على حقوق الآخرين .

- ولذلك كانت رئاسة ديوان المظالم (محكمة المظالم) في الأمة الإسلامية إلى الرجل العالم الورع الجليل القدر ، الرفيع الشأن ، وهو (قاضي المظالم) .

ولم يجلس لهذا المنصب الرفيع من الخلفاء الراشدين غير الإمام علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- والخليفة عبد الملك بن مروان أو من جلس من الخلفاء للنظر في مظالم الناس ، وأفرد لذلك يوماً خاصا .

- وكانت محكمة المظالم (ديوان المظالم) تحت رئاسة الخليفة أو الوالي في الإقليم أو نائب أحدهما ، وكان صاحب المظالم يحدد يوماً ينظر فيه مظالم الناس إذا كان موظفاً ، وإذا كان مختصا بالمظالم وحدها نظر في أمرها طوال الأسبوع .

وكانت هذه المحكمة في عهد الخلفاء الراشدين وحتى نهاية العهد العباسي تعقد في المسجد. وحتى يؤدي ديوان المظالم (محكمة المظالم) وظيفته كان يحاط صاحب المظالم بالجماعات الآتية:

- الحُماة والأعوان: وهم قوة تحمي القاضي، وتمنع الظالم من الفرار.

- الحُكام: ومهمتهم العلم بالأحكام التي تصدر لرد الحقوق لأصحابها ويزيدون قوة القضاء.

- الفقهاء: يرجع إليهم قاضي المظالم فيما يشكل عليه من مسائل الشرع الحنيف.

- الكتّاب: يقومون بتدوين أقوال الخصوم، وإثبات ما لهم وما عليهم من حقوق.

- الشهود: ومهمتهم إثبات ما يعرفون عن الخصوم، والشهادة على أن أحكام القاضي لا تتعارض وأحكام الشرع.

وقاضي المظالم يختص بالنظر في الأمور الآتية:

١- النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد ضد الحكام، أو موظفي الدولة.

٢- تنفيذ ما يعجز القاضي أوالمحتسب عن تنفيذه من أحكام.

٣- مراعاة إقامة العبادات كالجمع والحج والأعياد.

- راتب القضاة

أول من فرض راتباً شهريا للقضاة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد فرض للقاضي شريح- وهو قاضي الخليفة عمر الفاروق على الكوفة- مائة درهم شهريا.

وقد زادت رواتب القضاة في العهد الأموي؛ حيث زادت موارد الدولة، فقد بلغ الراتب الشهري للقاضي في عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية عشرة آلاف درهم شهريا، أعطيت للقاضي عبد الرحمن بن سالم.

وفي ولاية الخليفة عمر بن عبد العزيز في العهد الأموي لم يأخذ معظم القضاة راتباً شهريا على هذه الوظيفة التي نظر إليها على أنها وظيفة دينية.

وكانت رواتب القضاة كريمة سخية؛ حيث كان راتب القاضي ثلاثين ديناراً في بداية العهد العباسي، ثم بلغ مائتين وسبعين ديناراً في عهد الخليفة المأمون.

وكان القاضي في عهد أحمد بن طولون يتقاضى ألف دينار شهريا.

وقد بلغ راتب القاضي في عهد الفاطميين ألفاً ومائتي دينار، هذا بخلاف المؤونة الشهرية.

- الشهادة

واحدة من طرق إثبات الحق وإقراره ووصوله إلى صاحبه، ولذلك يعنى بها القضاة، ويتحرى صدقها منَ الذي يؤديها وهو الشاهد؛ لأنه يخبر عما شاهده، وعاينه، فالشاهد حاملَ الشهادة ومؤديها.

والشهادة فرض عين على من تحملها ودعي إليها.

قال الحق تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣]

ولا تكون الشهادة في الأمور العامة إلا من رجلين أو رجل وامرأتين، مثل الشهادة على البيع والإجارة والقروض؛ قال تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾

- بينما تقبل شهادة الواحد العدل في العبادات كالأذان والصوم والصلاة.

عن ابن عمر- رضي الله عنه- قال: «أخبرت النبي ﷺ أني رأيت الهلال فصام وأمر بصيامه».

بينما الشهادة في حد الزنى تكون بأربعة شهداء رجالاً لا غير. قال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء- ١٥]

(انظر: «الشهادات» في كتاب المعاملات)

- صاحب المظالم

إحدى وظائف القضاء، أنشأها سمنون بن سعيد حبيب، وكان عالماً إسلاميا من شمال إفريقية في عهد الأغالبة (١٨٤-٢٩٦هـ/ ٨٠٠-٩٠٩م)، وإليه يرجع الفضل في تثبيت مذهب الإمام مالك بإفريقية.

كان صاحب المظالم يفصل في القضايا الصغيرة، وكان يجلس إلى الناس في الأسواق والمجتمعات تسهيلاً عليهم، وطلباً للسرعة في حل النزاع.

ويروى أن الأمير محمد بن الأغلب عندما كلّف سمنون بمهمة القضاء تردد سمنون كثيراً في أول الأمر في قبول تلك المهمة، واشترط إلزام المتنازعين من البيت المالك بالحضور لديه مع الخصوم، وأن تطلق يده في جميع الناس. فقال الأمير: نعم، ولا تبدأ إلا بأهلي، وأجرِ الحق على مفرق رأسي. فقبل سمنون المهمة، وأحدث اتجاهات جديدة في القضاء.

- فتوى «الفتيا»

إجابة توضح الغامض من المسائل الشرعية، من إنسان مؤهل لذلك هو المفتي الذي يجيب عن الأسئلة حول ما أشكل من المسائل. فهي إبانة الجواب ووضوحه فيما أشكل من المسائل الشرعية. وتعتمد الفتوى في الشرع الحنيف على:

- النصوص الشرعية من كتاب الله.
- صحيح سنة رسول الله ﷺ.
- إجماع علماء الأمة.
- الاجتهاد.

(انظر: «بعثة معاذ لليمن» في الاجتهاد)

ويتصدى للفتوى العالم، الفقيه بالشرع وأحكامه، القادر على التفرقة بين الخطأ والصواب، البعيد عن الهوى، البريء من الظلم، العالم باللغة وعلومها المختلفة، كما يكون عادلاً سميعاً بصيراً.

وللفتوى في كثير من البلاد الإسلامية هيئات خاصة يعهد إليها بمسئوليات الفتاوى مثل: دار الإفتاء أو لجنة الفتوى أو مجلس العلماء.

وفي اللغة: أفتى المفتي: أحدث حكما. والفَتوي والفُتوى والفُتيا الجواب عما يشكل من المسائل الشرعية. والجمع فَتَاوَى، وفتاوٍ.

واستفتاه: سأله رأيه.

والمفتي: من يتصدى للفتوى بين الناس؛ حتى يبين لهم ما أشكل عليهم من المسائل في مجال فتواه.

والمفتي: مفرد جمعه مُفْتُون.

- القاضي

هو من يقضي بين الناس بحكم الشرع، وينظر في الخصومات والدعاوى، وإصدار الأحكام التي يراها طبقاً لقواعد الشريعة الغراء والسنة والاجتهاد والقياس.

وأول من عين القضاة في الولايات الإسلامية الخليفة العادل عمر ابن الخطاب رضي الله عنه. وكان تعيين القاضي من الخليفة مباشرة حتى يكون حرا محترماً لا سلطان لولاة الأقاليم عليه.

ويكون القاضي متمكناً في علوم الدين، تقيا ورعاً، عادلاً لا يخشى في الله لومة لائم، قادراً على الاجتهاد واستنباط أحكام الشرع من نصوص الدين الحنيف.

ثم ارتبط عمل القاضي بأمور السياسة في العهد العباسي، ووكل إلى القضاة إصدار الأحكام في ضوء مذهب من المذاهب الأربعة.

والقاضي لا يحكم في قضية إلا بعد التروي وتحري الحق، ويستمع إلى الخصمين، فلا يكتفي بالاستماع إلى أحدهما.

يقول الإمام علي رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ قال: يا علي إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول؛ فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء». أحمد والترمذي

والشرع الحكيم يوصي القاضي بعدم إصدار أحكام وهو غضبان أو جوعان أو قلق مهموم، أو وهو يغالبه النعاس، أو أثناء شعوره بالحر اللافح أو البرد القارس، أو يكون مشغولا بأمرٍ ما.

عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا يقضِيَنَّ حاكم بين اثنين وهو غضبان». البخاري ومسلم

وفي اللغة: القاضي في اللغة: من قَضَى، يقْضِي، قَضاءً.

وهو الذي يحكم في المسألة أو القضية، ويفصل فيها.

والقاضي: مفرد، وجمعه: قضاة. والقاضية في اللغة هي المنية أو الموت. ويقَال: ضربة قاضية: أي مميتة.

ويقال: قضى قضياً، وقضية، حكَمَ وفصل كأن يقال: قضى بين الخصمين، وقضى عليه وقضى له، وقضى بكذا فهو قاضٍ. واستقضى الدين: طلبه، وتقضَّاه الدين: طلبه منه، واستقضى الحاكم فلاناً: عينه قاضياً.

واستقضى فلان فلاناً: طلب قضاءه وحكمه، والقضاء: الحكم والأداء. والقضية: مسألة يتنازع فيها، وتعرض على القاضي أو القضاة للبحث والحكم.

- القضاء

هو مكان لفض المنازعات بين المتخاصمين، والقاضي يجتهد في تحري الحق والحكم بالعدل بين الناس، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾ [٥٨- النساء].

هذا لأن العدل يُريح النفوس السوية، ويُشعر الضعفاء من أبناء المجتمع بالراحة والاطمئنان والقوة؛ لأنهم في مجتمع عادل.

ويجتهد القاضي فيصيب أو يخطئ في اجتهاده إذا لم يكن هناك نص في كتاب الله أو سنة رسوله أو إجماع في الأمر.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر». رواه مسلم

وكان القضاء في أول عهد الناس بالإسلام يتولاه النبي ﷺ، وكان يسمع كلام المتخاصمين، ويعتمد في إثبات الحق على البينة وكل ما يُظهر الحقَّ، كما يعتمد أيضاً على اليمين، وشهادة الشهود والكتابة والفراسة وحصافة الرأي وسداده.

وعندما اتسعت رقعة الإسلام، وزاد عدد المسلمين أذن رسول الله ﷺ لبعض صحابته بالقضاء بين الناس، ثم أرسل الفقهاء إلى الأمصار، وكان ﷺ يعهد بمهمة القضاء إلى أهل العلم والفقه في الدين.

وكان الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أول من عيّن القضاة لفض المشكلات بين المتخاصمين من الرعية، وسنّ لهم دستوراً يسيرون على هديه.

(انظر: «دستور القضاء»)

بيْدَ أن النبي ﷺ كان قد أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن ليعلم الناس أمور دينهم ويقضي فيما يعنّ لهم من مسائل مختلفة.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده «أن النبي ﷺ حين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال له ﷺ: بم تقضي؟ قال: بكتاب الله. قال النبي: فإن لم تجد؟ قال: فبسنة رسول الله. قال النبي: فإن لم تجد؟ قال: فبرأيي».

البخاري ومسلم

وفي اللغة: القضاء من: قَضَى يقْضي قَضَاء: أي حكَمَ وفَصَلَ. وقاضاه: حاكمه. فالقضاء هو الحُكْم والفصل في القضايا بين الناس.

- القضية

مسألة يتنازع فيها متخاصمون، فإذا عرضت على القاضي أصبحت قضية تبحث من أجل إصدار حكم فيها وفق مبادئ الشرع الحنيف.

وقد تكون القضية من قضايا الدين أو الدنيا، فإذا كانت من قضايا الدين أصبح الحكم الذي يصدر (فتوى).

وإن كانت من قضايا الدنيا كانت حكماً قضائيا ينفذ بإعطاء صاحب الحق حقه.

عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال: «إنما أنا بشر مثلكم، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فأقضي بنحو ما أسمع. فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار». رواه البخاري ومسلم

وفي اللغة: القضية مفرد، جمعها قضايا.

وهي من الفعل: قضى يقضي، والمصدر قضاء.

- مجالات التقاضي

هي الميادين التي يعمل فيها القضاة من أجل سيادة الحق والعدل في جميع نواحي الحياة، من أجل المحافظة على الحقوق، سواء أكانت هذه الحقوق للناس، أو لله على خلقه جميعاً.

فالقضاة يفصلون بين الخصوم، ويستوفون الحقوق لأصحابها، وينظرون في النظم التي تَصْلُحُ بها حياة الناس كقوانين نظم البناء والطرقات، وصلاحيات الموظفين للأعمال التي يتولونها حتى تستقيم حياتهم بسيرة هادئة جميلة.

وقد تكون المجالات التي يثار حولها خلاف مسائل تتصل بالأحوال الشخصية كالنفقة والطلاق والزواج والميراث، وقد يثار الخلاف بين الناس حول ديون لم يتم أداؤها، أو شركة تجارية يراد حلها، أو قطعة أرض يختلف حول ملكها، فتكون هذه القضايا مدنيّة.

وقد يكون الخلاف بسبب العدوان على جسد الشخص بالضرب أو القتل فتكون قضية جنائية.

ويحتكم الناس إلى القضاة أيضاً في القضايا الإدارية التي تكون بين الموظف والدولة، وقد تكون القضايا دستورية - إذا كان حول ما تصدره الحكومة من نظم.

ويحكم القضاة في جميع مجالات القضاء بالشريعة الإسلامية الغراء التي تستهدف صيانة الحق، وإقامة العدل الذي في ظله يسعد الأسوياء من الناس، وكذلك العمل على صيانة الكليات الخمس، وهي: حفظ الدين والعقل والمال والعرض والنفس.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾

[٥٨- النساء]

وفي اللغة: المجال: الموضع أو المكان أو الميزان أيضاً. والجمع، مجالات. ومجالات التقاضي هي الميادين التي يحكم فيها القضاة.

- المذاهب

هي اجتهادات في المسائل الدينية منسوبة إلى أصحابها من فقهاء الأمة وتلاميذهم؛ وكل مجتهد من هؤلاء الفقهاء أصبح له مذهب في هذه المسائل يعتد به؛ لأنه يعتمد على مصادر الأحكام الشرعية، ومنها ما اشتهر وذاع صيته.

(انظر: «مصادر الأحكام»)

وفي العصر العباسي ضَعُفَ رُوح الاجتهاد في الأحكام، فأصبح القاضي يصدر حكمه وفق أحد المذاهب الأربعة.

ففي العراق كان القضاة يصدرون أحكامهم وفق مذهب الإمام أبي حنيفة.

وفي الشام والمغرب العربي وفق مذهب الإمام مالك.

وفي مصر وفق مذهب الإمام الشافعي.

وفي نجد والخليج العربي وفق مذهب الإمام أحمد بن حنبل.

وهؤلاء الأئمة الفقهاء لا تختلف مذاهبهم في الأمور الكلية، وإنما اختلافهم في الجزئيات التي فيها تيسير لحياة الناس.

وفي اللغة: المذاهب: جمع، مفرده: مَذْهَب. وهو المسلك والرأي والطريقة التي تستند على مجموعة من المصادر الفقهية في مسائل متعددة.

والمذاهب من الفعل: ذَهبَ، يَذْهب، ذَهَاباً وذُهُوباً ومَذْهَباً، بمعنى مَرَّ ومَضَى.

ويأتي الفعل ذهب أيضاً بمعنى: مات.

ويقال: ذهب الأثر: زال وامَّحَى.

وذهب إلى قول فلان: أخذ به.

وذهب مذهب فلان: بمعنى قصد قصده وطريقته.

مصادر التشريع

مصادر التشريع: هي الأسس والمبادئ والمنابع التي يستمد منها القاضي المواد التي يستند عليها في أحكامه التي يصدرها في القضايا المعروضة عليه. وتجمع المذاهب على أن القرآن الكريم هو المصدر الأول، والسنة النبوية هي المصدر الثاني. وتختلف المذاهب في ترتيب المصادر الأخرى، وهي في الإسلام الحنيف:

- الكتاب: وهو القرآن الكريم، وهو دستور الأمة الأول لكل حكم من أحكام المسلمين، فإذا وجد به الحكم فلا ينظر إلى سواه.

(انظر: «القرآن»)

- السُّنَّة: هي كل ما صدر عن الرسول ﷺ من أقوال أو أفعال أو أحكام أو تقريرات. والسنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر أحكام الشريعة.

- الإجماع: ويعنى به الأحكام التي يجمع عليها علماء الأمة في القضايا.

(انظر: «إجماع»)

- الاجتهاد: إذا لم يكن في القضية المعروضة على القاضي نص في كتاب الله ولا في سنه رسول الله ﷺ ولم يسبق إجماع الأمة على الحكم فيها؛ فالقاضي هنا يجتهد برأيه. عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده «أن النبي ﷺ حين بعث معاذ ابن جبل إلى اليمن قال له: بم تقضي؟ قال معاذ: بكتاب الله. قال ﷺ: فإن لم تجد؟ قال معاذ: فبسنة رسول الله. قال ﷺ: فإن لم تجد؟ قال معاذ: فبرأيي».

رواه البخاري ومسلم

وإذا اجتهد القاضي فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر اجتهاده؛ حيث إنه يجتهد في الوصول إلى الحق قدر استطاعته.

عن عمرو بن العاص- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اجتهد أحدكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر». رواه البخاري ومسلم

(انظر: «اجتهاد»)

- القياس: وعلى القاضي في اجتهاده أن يقيس الأمور والأشباه، أي يقيس القضية المعروضة عليه على قضية صدر فيها حكم شرعي من قبل. هذا إن لم يجد لهذه القضية حكماً في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله ﷺ، ولم يستطع أن يصل باجتهاده إلى استنباط هذا الحكم.

هذه هي مصادر التشريع في الإسلام التي يستضيء بها القاضي فيما يصدره من أحكام في القضايا التي تعرض عليه .

وفي اللغة : المصادر : جمع مَصْدر . وهو المورد والمنبع الذي يصدر منه الشيء ، فمصادر القضاء هي المنابع التي يستقي منها القضاة مواد الأحكام في القضايا . وهي من صَدَرَ يَصْدُرُ صُدوراً أو صدْراً بمعنى وقع وتقرر .

- المُكْـرَه

قد يجد القاضي أمامه إنساناً يدلي بأقواله في قضية ما . والقاضي يستمع إليه ؛ لأنه يتحرى الحق ، ويستهدف العدل ، ولكن هذا الإنسان قد يكون مكرها على ذلك بتهديد في نفسه ، أو ولده ، أو أهله وماله .

ولذلك يراعي القضاء العادل في إصدار أحكامه ظروف هؤلاء المكرهين ، فلا تقبل شهادتهم .

(انظر : «الشهادة» في كتاب المعاملات)

وفي اللغة : أكرهه على الأمر : قَهَرَه عليه ، فهو مُكْرَهٌ .

وكرَّه إليه الأمر : صيَّره كريهاً إليه .

وتكاره الشيء : استكرهه وكرهه .

وكَرِه الشيءَ كُرهاً ، وكراهة ، وكراهية : ضد أحبّه ، فهو كريه ومكروه .

- وظيفة القاضي

كانت في أول الأمر الفتيا في أمور الدين ، والحكم في القضايا والخصومات المدنية والجنائية .

واستمرت وظائف القضاة على هذا حتى نهاية الحكم الأموي سنة ١٣١هـ.

وفي العصر العباسي اتسعت وظيفة القاضي، فأصبح يفصل في الدعاوى والأوقاف، وتنصيب الأوصياء، وكانت تضاف إليه أحياناً الشرطة والمظالم والقصاص والحسبة ودار ضرب النقود (سك العملة) وبيت المال.

- قاضي الجماعة

هذه الوظيفة القضائية كانت ببلاد الأندلس حين كانت تحت حكم المسلمين، وهذه الوظيفة هي وظيفة القضاة بالشرق العربي. وكان قاضي الجماعة يقوم بتولية القضاة الذين ينوبون عنه بأقاليم الدولة.

- قاضي العسكر

وظيفة قضائية استحدثت في النظام القضائي بمصر زمن المماليك في عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م.

وكان القضاة أربعة، يمثل كل منهم واحداً من المذاهب الإسلامية، ثم عُين جانبهم قاضٍ آخر للعسكر.

وكان قاضي العسكر هذا يحضر بدار العدل بالقرب من السلطان دون مرتبة قضاة المذاهب، كما كان يصحب السلطان في أسفاره.

ويعرف هذا في العصر الحديث باسم القضاء العسكري.

وفي اللغة: العسكر: الجيش ومجتمعه، والجمع عساكر، وهي من: عَسْكَرَ القوم بالمكان: تجمعوا به، والمعسكر مكان تجمع العسكر.

- قاضي القضاة

وظيفة من وظائف القضاء، استحدثت في العصر العباسي. وهذه الوظيفة تعادل الوزارة.

وقاضي القضاة بمثابة وزير العدل الآن.

وكان قاضي القضاة يقيم بعاصمة الدولة، ويولي من قبله قضاة ينوبون عنه في الأقاليم والأمصار.

والقاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب كتاب (الخَراج) هو أول من تولى وظيفة قاضي القضاة ولقب بها. وكان ذلك في عهد الخليفة هارون الرشيد، وكان هذا الخليفة يُجِلُّ قاضي القضاة، ويحترمه، وينزله منزلة كبير في الدولة.

(انظر: «موكب الخليفة»)

- القضاة الأربعة

كان يتولى القضاء في مصر قاضٍ واحد قبل الظاهر بيبرس.

وقد عدّل الظاهر بيبرس ذلك النظام في عام ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م، وعيّن أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة.

وقد أجاز بيبرس لهؤلاء القضاة الأربعة أن يولوا نواباً عنهم في أقاليم الديار المصرية.

- اليمين

هو في مجالات القضاء قَسَمٌ وحَلَفٌ يسبق الإدلاء بالشهادة أو يدلي به المدَّعى عليه، ويكون اليمين لتأكيد شيء أو نفيه.

ولا تكون اليمين في الشرع الحنيف إلا بالله تعالى، أو باسم من أسمائه تعالى، أو بصفة من صفاته جل شأنه. فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصْمُت».

رواه البيهقي

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال لرَجلٍ حَلَّفه: «أحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما له عندي شيء». رواه أبو داود والنسائي

ويحلف المدعَى عليه اليمين إذا عجز المدعِي عن إقامة البينة على دعواه. وتكون اليمين على النفي دائماً دلالة على براءة ذمة المدعَى عليه.

وإذا حلف المدعَى عليه اليمين حفظت الدعوى، وردت على المدعِي.

وإذا امتنع المدعَى عليه عن اليمين ثبت الحق للمدعِي، وتكون اليمين على نية المستحلِف أو على نية القاضي، وليست على نية الحالِف.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: إن النبي ﷺ قال: «اليمين على نية المستحلِف». رواه الترمذي ومسلم

وفي اللغة: اليمين: القسم، وهو مفرد، وجمعه أيمان أو أيمن. واليمين من: يَمَن يَيْمَنُ يَمْناً: أخذ ذات اليمين. ويَمَنَ: أتَى اليمين. وتيمَّن بفلان: ذهب به ذات اليمين.

نماذج من الأئمة والقضاة

- ابن مسروق القاضي:

القاضي ابن مسروق الكندي كان من أشهر قضاة مصر، وقد ولي وظيفة القضاء من ١١٧-١٨٤هـ/ ٧٣٥-٨٠٠م.

وقد حرص القاضي ابن مسروق الكندي على إعلاء منزلة القضاة، ورفعة مراكزهم؛ فلم يخضع لسلطة الوالي، ولم يحضر مجلسه كما جرت العادة في عهده بالقضاء، مما أدى إلى عدم حضور القضاة مجالس الحكم بعد ذلك.

ومن الإصلاحات التي نفذها ابن مسروق الكندي اتخاذه قِمَطْراً (درجاً) تودع فيه القضايا، ويختم القمطر بعد وضع القضايا فيه، ثم يفض (يفتح) إذا جلس القاضي ليباشر وظيفته.

- الإمام أبو حنيفة:

هو الفقيه الضليع الكوفي الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت، عاش زهاء سبعين عاماً، حيث ولد عام ٨٠هـ/ ٦٩٩م، وتوفي عام ١٥٠هـ/ ٧٧٢م.

وكان عابداً لله، حيث يقول صاحب (وفيات الأعيان): إنه من كثرة عبادته مكث يصلي الفجر بوضوء العشاء أربعين عاماً. وكان ذكيا ورعاً مع علمه، فلقد رزقه الله الفراسة والقدرة على الاستدلال واستنباط الأحكام حتى قال الإمام الشافعي: «الناس عيال على فقه الإمام أبي حنيفة النعمان».

وكـان زاهداً في المناصب الدنيـوية حـتى إنه رفض تـولي القـضـاء زمن الخليفة العباسي المنصور الذي استدعاه إلى بغداد بعد أن ضربه الوالي على رفضه وظيفةَ القضاء.

وكان مجتهداً يستمد اجتهاده من الكتاب والسنة الصحيحة. وقد لَخص مذهبه في قوله «آخذ بكتاب الله، فما لم أجد فبسنة رسول الله ﷺ، فما لم أجد أخذت بقول صحابته رضوان الله عليهم دون غيرهم».

- وكـان يأخذ بالقيـاس ولا يقدمه على النص، ولا يستعمله إلا عند الضرورة، وقد رزقه الله فطنة في استنباط الأحكام حتى لقِّب (إمام أهل الرأي). وله كثير من التلاميذ والأتباع في شتى بلاد العالم الإسلامي.

- الإمام أحمد:

هو الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس الشيباني.

ولد أحمد بن حنبل عام ١٦٤هـ. وكان عالماً حافظاً تقيا ورعاً. قيل إنه كان يحفظ أكثر من مائة ألف حديث، فكان محدثاً بارعاً، وفقيهاً بارعاً، وقد تحمل كثيراً من الأعباء والشدائد؛ فقد ضرب وعذب وسجن ليقول إن القرآن مخلوق، فأبى وأصر على الرفض.

وكـان زاهداً في الدنيـا، يأبى الجلوس على شيء غيـر التـراب حـتى الحصير، حيث كان يعد الجلوس على غير التراب ترفاً.

وله مذهبه الفقهي الذي تعتمد أحكامه على كتاب الله، وصحيح سنة رسول الله ﷺ. وكان الإمام أحمد لا يعترف بالقياس أو الرأي، ويرى أنهما من البدع، فكان الكتاب والسنة والإجماع مصادر مذهبه.

ومن آثاره (المسند) الذي جمع فيه كثيراً من الأحاديث.

وقد توفي الإمام أحمد عام ٢٤١هـ/ ٨٥٥م، ببغداد، وشيع في موكب جنائزي كبير، ويقال: لقد اشترك في جنازته ثمانمائة ألف رجل، وستون ألف امرأة.

وكان هؤلاء العلماء والأئمة المجتهدون أصحاب مذهب الإمام يراعي كل منهم أحوال البلاد التي يفتي فيها وظروف العباد.

- الإمام الشافعي:

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع القرشي. ولد بغزة عام ١٥٠هـ/ ٧٦٧م.

وهب له الله الذكاء الحاد والفراسة الصائبة، والذاكرة الواعية الحافظة، حتى إنه ليقال: إنه حفظ القرآن وهو ابن خمس سنين.

وقد تلقى ألواناً من العلم، ورحل كثيراً في طلبه، وأجاد اللغة العربية الفصحى لتنقله بين القبائل في بواديها، وكان حجة فيها.

ومن أساتذته الإمام مالك، حفظ موطأه وقرأه عليه، شيخه الزنجي خالد أيضاً، وقد أذن له بالإفتاء وسنه خمس عشرة سنة.

والإمام الشافعي أول من تكلم في أصول الفقه، واستنبط هذا العلم، وله فقه يجمع بين الرأي والحديث.

وللشافعي زهاء مائة وأربعين مؤلفاً، أشهرها كتاب الأم وكتاب الرسالة اللذان يجمعان مذهبه الذي ينتشر في كثير من البلاد الإسلامية.

وقد قدم الإمام الشافعي إلى مصر عام ٢٠١هـ، وظل فيها حتى توفي يوم الجمعة آخر يوم من شهر رجب عام ٢٠٤هـ/ ٨١٩م، ودفن بها.

- الإمام مالك:

هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي.

ولد عام ٩٣هـ/ ٧١١م بالمدينة المنورة، وتوفي بها سنة ١٧٩هـ/ ٧٥٩م.

ولم يرض عن الإقامة بالمدينة بدلاً، ولذلك اعتذر عن دعوة بني العباس له إلى بغداد حاضرة الخلافة العباسية، حتى أنه لقب بإمام دار الهجرة.

وكان يعتز بالمدينة ولم يركب فيها دابة؛ لأنها تضم جسد رسول الله ﷺ.

والإمام مالك يعد إماماً كبيراً في الحديث الشريف، وله الموطأ الذي يُعدُّ أول كتاب جمع في حديث رسول الله ﷺ، وله أيضاً من الآثار العلمية كتاب في (تفسير غريب القرآن)، وله (رسالة) في الرد على القدرية وغيرهم.

والإمام مالك يعتمد على الكتاب والسنة، ثم على أقوال الصحابة، ثم على الإجماع.

وكان يقدم عمل أهل المدينة؛ لأنهم أبناء أولئك الذين صاحبوا رسول الله ﷺ ، وربما اعتمد على القياس والاستحسان والعرف وسد الذرائع والمصالح المرسلة، بشرط ألا تتنافى مع أصل من أصول الشرع الحكيم.

وانتشر مذهب الإمام مالك في كثير من البلاد الإسلامية وخصوصا في بلاد المغرب العربي.

- القاضي بكّار:

لقد نبغ القاضي بكار بن قتيبة في الفقه والعلوم الإسلامية؛ حتى أصبح من أشهر قضاة الأمة الإسلامية في عهده، وأعلمهم بالفقه وعلوم الدين.

وقد عاش القاضي بكار في زمن أحمد بن طولون بمصر، وله مع ابن طولون قصة طريفة ذات مغزى. يحكى أن الموفق قد نكث في عهد البيعة للخليفة العباسي المعتمد، وخرج على حرمة الخلافة. فطلب أحمد بن طولون من القضاة أن يلعنوا الموفق، فأبى القاضي بكار ذلك الطلب، فألح عليه ابن طولون، وأصر القاضي بكار على موقفه، فأغضب ذلك أحمد بن طولون؛ ولا سيما أن القاضي بكار كان لديه معززاً مكرماً معظماً معروفاً له بحقه وقدره.

وكان أحمد بن طولون يجيزه في كل سنة بألف دينار، فلما غضب عليه أرسل إليه يسأل: أين جوائزي؟

- فقال القاضي بكار: هي على حالها، ثم أحضرها من منزله بخواتيمها (ستة عشر) كيساً لم يفض أحدها، فقبضها أحمد بن طولون.

– القاضي توبة الحضرمي بن نمر:

ولي القضاء خلال العصر الأموي (١١٥ - ١٢٠هـ). وكان معروفاً بالعدل والاستقامة وكريم الخلق.

والقاضي توبة الحضرمي أول قاض وضع يده على الأحباس (الأوقاف) حتى يحفظها من التوارث والهلاك، وجعل لها ديواناً.

وهذه الأحباسُ أموال معينة لا تباع ولا تورث، وإنما تكون غلتها ومنفعتها وقفاً على أشخاص أو أشياء معينة. وبدأت الدولة الإسلامية من عهد الخليفة العادل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تحبس بعض ممتلكات الدولة من أرض زراعية أو غيرها للإنفاق على دور العبادة، والعلم، والعلماء فيما يعرف باسم الأحباس (الأوقاف).

– القاضي غوث:

هو أحد قضاة مصر في العصر العباسي الأول حيث ولي القضاء خلال الفترة (١٥٩-١٧٠هـ/ ٧٧٥-٧٨٦م). وقد أدخل القاضي غوث على وظيفة القضاء كثيراً من صنوف الإصلاح التي أبرزها تحريه عن شهادة الزور من قبل الشهود في القضايا، فكان القاضي غوث يسأل عن الشهود سرا، فإذا لم يتأكد من استقامتهم وحسن سمعتهم رفض شهادتهم.

وقد اشتهر القاضي غوث بالعدل والاعتدال فيما أصدره من أحكام.

ومن أشهر ما يروى عنه في هذا المجال أنه سوَّى بين الخليفة المهدي وامرأة شكته، إذْ ساوى القاضي غوث بين الرجل الذي وكَّله الخليفة عنه والخصم في مجلس القضاء.

وقد وصف الكندي القاضي غوثاً بقوله: «إنه أعلم الناس بمعاني القضاء وسياسته».

الكتابة

- أصل الكتابة:

حِرْفَةٌ أو صناعة ذات شأن كبير تعطي صاحبها (الكاتب) منزلة اجتماعية عظيمة. وكانت الحاجة لتلك الصناعة شديدة، وخصوصاً في الفترة التي كانت الأميَّة تسود المجتمع.

والكتابة من أعظم ما اخترع العقل البشري، فهي تحفظ التراث الإنساني وتواصل الأجيال. وفي صناعة الكتابة قال القلقشندي:

«وكفى بهذه الصناعة شرفاً أن صاحب السيف يزاحم الكاتب في قلمه، ولا يزاحمه الكاتب في سيفه، بل كفى بهذه الصناعة مجداً وسموا أن السلطان وهو رئيس الناس؛ ومستخدم أرباب كل صناعة، ومُصَرفهم على أغراضه يفتخر بأن تكون فضيلتها حاصلة له مع ترفعه عن التلبس بأية صناعة من الصنائع الحسنة، وأنَفته أن يقع اسم من أسمائها عليه».

(صبح الأعشى، الجزء الأول، ص ٣٨)

وقد ارتبط اسم الكتابة في الإسلام بكتاب الوحي الذين كانوا يقومون بكتابة وحي السماء (القرآن الكريم) إلى النبي ﷺ.

وقد اتسعت الدولة الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، فاشتدت حاجة المجتمع الإسلامي إلى الكتابة، فقد أصبح للدولة جيش وموظفون يقومون بأعمال الدولة، ويكتبون ذلك في دواوين اقتضاها تطور

الحياة ونظام الحكم، ولا يتم ذلك إلا بصناعة الكتابة وتوثيق الأمور مكتوبة حتى يرجع إليها عند الحاجة.

وكان مفهوم الكتابة يستجيب لتطور الزمن؛ ومتطلبات الحياة عَبْرَ التاريخ الإسلامي منذ أشرقت شمس الإسلام حتى اليوم. وقد ارتبط فَنُّ الكتابة بديوان الحكم، وأصبحت الكتابة وظيفة ذات شأن وخطر عظيمين.

قال الشاعر العربي في الكتابة:

ولضربة من كاتب ببنانه	أمضى وأقطع من رقيق حسامِ
قوم إذا عزموا عداوة حاسدٍ	سفكوا الدما بأسنةِ الأقلامِ

وفي اللغة: الكتابة من: كَتَبَ يكتب كتابة. ومن ذلك أيضاً: الكاتب الذي يقوم بالكتابة، وجمعه كُتّاب وكتبة. والمكتب: موضع الكتابة، وجمعه مكاتب. ويقال: فلان كاتَب صديقه، أي راسله.

- التوقيعات:

نوع من الكتابة الموجزة تأتي في نهاية الرسالة، كتعليق يشتمل على مضمون محتوى الرسالة، وقد يكون معروفاً بين الناس، أو حكمة ذائعة منتشرة بينهم.

وهذه الكلمات الموجزة تَنِم عن بلاغة اللغة؛ وحضارتها؛ فهي تحتوي على المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة.

وكان بعض الخلفاء يكتبون هذه التوقيعات بأنفسهم لأهميتها في نهاية رسائلهم، وكذلك فعل بعض الوزراء.

وقد اشتهر كثير من التوقيعات منسوبة إلى بعض الخلفاء في نهاية رسائلهم؛ فمما يروى متواتراً أن أهل الكوفة قد شكوا إلى الخليفة المنصور سوء معاملة عامله فيهم، فكتب الخليفة المنصور التوقيع التالي:

«كما تكونون يولى عليكم».

ومما ينسب متواتراً أيضاً إلى الخليفة عُمرَ بن الخطاب - رضي الله عنه - قوله: «كَثُرَ شاكوك، وقَلَّ شاكروك. فإما اعتدلت وإما اعتزلت».

ومن توقيعات هارون الرشيد المشهورة إلى أحد عماله في خراسان: «داوِ جُرْحَك لا يتسع».

وفي اللغة: وقَّعَ (في الكتابة): بَينَ في إيجاز رأيه فيه بالكتابة، (وفي العقد، أو الصك): كتب في أسفله اسمه إمضاء له أو إقراراً به. والتوقيع مفرد جمعه: توقيعات، وتواقيع أيضاً. وهي تعليقات الرؤساء على كتاب أو طلب بقول موجز يوضح رأيه فيه.

والموقِّع: هو كاتب التوقيع.

وقَّعَ، يوقِّع، توقيعاً.

- الخاتم:

عبارةٌ موجزة، محفورة في جسم صُلب يختم بها الخطاب بعد تمامه لإقراره والاعتراف بصحة ما فيه، أو تطبع كتابة هذا الخاتم على وجه

الخطاب حتى لا يفضه إلا المرسَل إليه. وإذا فتح فسدت الكتابة المختومة التي تدل على ذلك.

وكانت كتابة الخاتم موجزة منذ عهد النبوة، فكان للنبي ﷺ خاتمه الذي يختم به الرسائل التي كانت ترسل إلى ملوك العجم، حيث كان هؤلاء الملوك لا يقرون بما في الرسالة إلا إذا كانت محفورة بخاتم معين محدد. وكانت العبارة المحفورة على خاتم النبي ﷺ هي (محمد رسول الله). وقد اعتز الخلفاء الراشدون بخاتم النبي ﷺ حتى أنه يقال إنه قد سقط في بئر في عهد الخليفة عثمان بن عفان- رضي الله عنه- وبحث عنه كثيراً دون العثور عليه.

وكانت عبارة الخاتم موجزة شديدة الإيجاز، موحية قوية الإيحاء، ففي عهد الخلفاء الراشدين كانت العبارة تحمل موعظة. فكان نقش خاتم عمر بن الخطاب «كفى بالموت واعظاً يا عمر»، كما كان نقش الخليفة عثمان بن عفان «لينصرف أو لتندَمنَّ»، وكان نقش الخليفة علي بن أبي طالب «المُلك لله».

وكان الخليفة معاوية بن أبي سفيان أول من استعمل الخاتم لضمان عدم فض الخطاب إلا من المرسل إليه، وكان لذلك قصة طريفة متواترة في مصادر متعددة، كما نجدها لدى ابن الأثير في كتابه (الكامل)، وهي أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان، أرسل عمر بن الزبير إلى زياد بن أبيه عامل الخليفة على الكوفة بخطاب ليعطيه مائة ألف درهم. ولم يكن الخطاب مختوماً، فجعل عمر بن الزبير المائة مائتين، وعندما رفع زياد بن أبيه

الحساب إلى الخليفة معاوية بن أبي سفيان كشف ما قام به عمر بن الزبير. فما كان من الخليفة إلا أن وضعه في السجن، واستمر به حتى دفع أخوه عبد الله بن الزبير مائة الألف عن أخيه عمر. ومن بعدها استعمل الخليفة معاوية بن أبي سفيان ختم رسائل الدولة.

ثم أنشئ بعد ذلك (ديوان الخاتم) الذي يختم الرسائل المرسلة من الدولة. ويتأكد من سلامة ختم الرسائل القادمة إليها من الدول والممالك الأخرى.

وقد حرص خلفاء العصر العباسي على أن تحمل الكتابة المنقوشة بخاتم الخليفة الصلة الوثيقة بالخليفة. فكانت الكتابة المنقوشة بخاتم الخليفة الواثق هي: «الله ثقة الواثق»، وكانت عبارة خاتم الخليفة المتوكل هي: «توكلت على الله».

وفي اللغة: الخَتْمُ أو الخاتَمُ: من خَتَمَ خَتماً وختاماً. فالْخَتْمُ أثر نقش يدل على تمام الشيء، ومنه الخاتم الذي يُخْتَمُ به الخطاب، أو الرسالة.

والخِتام (بكسر الخاء) طين أو شمع يختم به على الشيء.

- ديوان الإنشاء:

هو فن يعلم به جميع المعاني والتأليف بينها وتنسيقها، ثم التعبير عنها بعبارة أدبية راقية. استحدث ديوان الإنشاء في عهد العباسيين، وقد كان لهذا الديوان منزلة عظيمة في ذلك العهد (العباسي) من عهود الدولة الإسلامية.

وكان رئيس ديوان الإنشاء الذي كان يسمى أيضاً (الديوان العزيز) ـ كان رئيسه يسمى (كاتب السر). وكان هو كبير الكتاب في ذلك الديوان، حتى أنه لُقب أيضاً برئيس ديوان الإنشاء.

وقد حدث ذلك التطور في وظيفة الكتابة، حيث كانت الوظيفة ترتبط بالخلفاء في العهد الأموي. ثم ارتبطت بالوزراء في العهد العباسي في كثير من الأحيان. حيث كان بعض الخلفاء يتولى الرد بنفسه على بعض المكاتبات حين يرون ذلك ضرورة. وقد حدث هذا مع الخليفة أبي جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس، فقد دارت بينه وبين محمد بن عبد الله بن الحسن الذي ثار عليه سنة ١٤٥هـ، فكان الخليفة يتولى الرد بنفسه على كتبه؛ لأن هذه الكتب كانت تتحدث عن الأحساب والأنساب فرأى الخليفة أن يرد عليها بنفسه قائلاً: «إذا تقارعنا عن الأحساب فدعني وإياها».

(ابن الأثير: الكامل في التاريخ)

وفي اللغة: هي من الفعل: أنشأ، بمعنى: شرع. ويقال: أنشأ الكاتب مقالة، أي ألفها. ومن ذلك: أنشأ إنشاءً: أحدث وجدّد.

والإنشاء عند الأدباء: فن يعلم به جميع المعاني والتأليف بينها وتنسيقها، ثم التعبير عنها بعبارات أدبية بليغة.

- صاحب القلم الدقيق:

هو الكاتب الذي كان يوقِّعُ على المظالم في العهد الفاطمي في مصرَ، وكان من أهل الكفاءة والثقة.

وكان صاحب القلم الدقيق يحظى بثقة الخليفة وتقديره؛ فكان يُجالس الخليفة ويسامره.

- القلم والورق «أدوات الكتابة» :

القلم من أهم أدوات الكتابة، وقد أقسم به رب العزة - سبحانة وتعالى - في مفتتح سورة القلم. قال الله تعالى: ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [١ - القلم]

وكان القلم في بداية عهد الكتابة يُصْنَعُ من القصب بأنواعه المتعددة، ولا يزال كذلك حتى يومنا هذا في كثير من المجتمعات.

والآن تقدمت صناعة الأقلام، وتنوعت هذه الصناعة، فأصبح القلم يصنع من الرصاص، أو من العاج، أو من الأبنوس، أو غير ذلك من المعادن الأخرى، وقد يطلى بماء الذهب في بعض أجزائه أحيانا.

ويستخدم المِدَاد في الكتابة بالقلم. والمداد عبارة عن مسحوق من الفحم مع سائل لزج كالصمغ، وله ألوان متعددة، وهناك مادة للكتابة من الرصاص، ومادة أخرى من الحبر الجاف، أو غير ذلك مما تحرص عليه صناعة الكتابة المتطورة.

ومن أدوات الكتابة ما تكتب عليه المادة المكتوبة. وقد صنع العرب الورق منذ وقت مبكر، فكتبت عليه رسائل الحكام، وأمور الدولة. والآن تعددت أنواعه وأحجامه وألوانه.

ثم تنوعت الطباعة كما تنوعت الكتابة، وقد يسرت الطباعة الحديثة أمر الكتابة كما ساعدت على انتشار ما يكتب بسرعة؛ فالطباعة تمثل نقلة حضارية في تاريخ فن الكتابة ومتطلباتها.

- الكاتب:

وظيفة من يقوم بالكتابة لأهل الحكم وأولي الأمر، وقد ارتبط اسمه بصناعة الكتابة.

(انظر: «الكتابة»)

وقد أنشئت وظيفة الكاتب منذ إنشاء ديوان الرسائل في العهد الأموي، وكان الناس ينظرون إلى كاتب الرسائل نظرة تقدير واحترام لعلاقته الوطيدة بالحكم والحكام.

وكان خلفاء بني أمية يختارون كتّابهم من أقرب الناس إليهم، أو من أهل ثقتهم، كما كانوا يحرصون على أن يكون الكاتب شريف النسب، كريم الحسب، ومن عظماء قومه وعشيرته.

وكان عمل الكاتب تابعاً للخليفة، أو الوزير في أول الأمر. ثم استقلت الكتابة؛ وأصبح الكاتب نظيراً للوزير، بل وأخذ لقبه في بعض الأحيان.

وفي اللغة: كاتِبٌ اسم فاعل من الفعل: كَتَبَ. ويقال: كُتَّابٌ وكَتَبَةٌ، والمفردة كاتبة.

وفي الأدب: الكاتب: من يتولى صناعة النثر. وكذلك من يتولى عملاً كتابيا أو إداريا.

- **كاتب الدرج:**

هو كاتب من الطبقة الثانية من الكتاب بمصرَ في عهد المماليك.

وكان هؤلاء الكتاب يكتبون الرسائل والمنشورات على ورق مستطيل من عدة أوصال. كما كانوا يقومون بكتابة ما يدونه صاحب الإنشاء وكاتب الدست.

وكان عدد كتاب الدرج يزيد بزيادة عدد كتاب الدست.

- **كاتب الدست:**

هو كاتب يجلس في صدارة المجلس بين يَدَي السلطان، وهو من الطبقة الأولى من طبقات كُتاب ديوان الإنشاء في مصر في عهد المماليك.

وكان في أعمال (كُتَّابِ الدست) قراءةُ القَصَصِ على السلطان بعد أن يفرغ من قراءتها رئيس الديوان.

ومن كتاب الدست في ذلك العهد فخر الدين لقمان الذي تولى رئاسة الديوان في عهد الملك الظاهر بيبرس.

- **كاتب السِّرّ:**

أصبح هذا هو اسم كاتب ديوان الإنشاء في عهد المنصور بن قلاوون، حيث غَيَّر هذا الحاكم من حكام مصر المماليك اسم (صاحب الديوان) أو كاتب ديوان الإنشاء إلى لقب (كاتب السر).

وكان هذا الديوان يقوم بما تقوم به وزارة الخارجية الآن.

فكانت تَفِدُ إليه المكاتبات الرسمية للدولة من جميع أنحاء الولايات والممالك التي كان بينها وبين مصر علاقات.

- الكاتب الوزير:

اتخذ أحمد بن طولون كاتباً له يسمى (كاتب السر) وكان بمثابة سكرتير خاص له، وكان الكاتب يقوم بأعمال الوزير، فكان بمثابة الوزير. واستمر ذلك حتى العهد الفاطمي، فكانت الكتابة في ذلك العهد تعادل الوزارة؛ أو تليها في المرتبة، فكانت الكتابة تسند إلى أهل الكفاءة والثقة.

- الكتابة الديوانية:

هي نوع من الكتابة تتطلبه حياة الدولة، وتسيير أمورها من تدوين الدواوين؛ أو شئون الوزارات ومعاهداتها؛ أو بيت المال، وتدبيرات الاقتصاد من إنتاج واستهلاك.

والكتابة الديوانية تحتاج إلى دقة في اختيار الألفاظ التي تحدد المعنى المراد تحديداً دقيقاً. ولذلك كانت هذه الكتابة تسمى أيضاً «كتابة الأموال».

وقد أُنْشِئَتْ عدة دواوين للكتابة الديوانية اختلفت من حيث العدد باختلاف تطور مظاهر الحياة في الدولة الإسلامية، كما سنرى في كثير من مداخل هذا الفصل.

(انظر: «ديوان الإنشاء»)

نماذج من الكتاب:

نبغ كثير من الكتاب واشتهرت أسماؤهم، وذاع صيتهم بين الناس، حيث كان هؤلاء الكتّاب يعتمد عليهم الحكام في تسيير أمور الدولة؛ وشئون الحكم؛ ومؤانسة الحكام.

ومن هذه النماذج لأولئك الكتاب المشهورين:

- عبد الحميد الكاتب.
- فخر الدين لقمان.
- القضاعي الكاتب.
- يحيى بن خالد البرمكي.

- عبد الحميد الكاتب:

هو عبد الحميد بن يحيى الكاتب، من أصل فارسي، نشأ بالأنبار، ثم انتقل إلى الشام.

وهو من أشهر كُتاب العهد الأموي، وقد عاش بالكوفة، وعمل بها معلماً، وعاش في أوج الدولة الأموية، وغاية عِزها.

وأول من اتصل به من خلفاء بني أمية هشام بن عبد الملك، ومما ساعده على النبوغ في الكتابة التقاؤه سالماً، مولى هشام بن عبد الملك، ورئيس كتّابه وأمهرهم، وأكثرهم اطلاعاً على ثقافة اليونان وأدبهم.

ثم اتصل عبد الحميد الكاتب بمروان بن محمد حين كان والياً على أرمينية فنشأت بينهما صداقة ومودة قويتان، مما جعل مروان بن محمد يصحبه معه إلى دمشق حين آلت إليه الخلافة. وظلّ عبد الحميد الكاتب منقطعاً لخدمة مروان بن محمد، ويقصرُ وفاءه عليه حتى آخر حياتهما.

وكان عبد الحميد بن يحيى الكاتب مُلما بالثقافة اليونانية، ثم الفارسية، مع نبوغه في العربية، مما جعله ينبغ في فَن الكتابة.

وكان أول من أطال الرسائل حتى بلغ بعضها زهاء ثلاثين صفحة، كما عني بترتيب أفكارها، وحسن تقسيمها وتنسيقها. وقد وهبَ حُسن الذوق، ودقة الاختيار للألفاظ الجميلة التي تصنع الأسلوب الرشيق.

ويَرى أن للكتَّاب منزلة عظيمة، وعليهم واجباً كبيراً؛ والتزاماً أدبيا عظيماً. ومن قوله فيهم: «بكُمْ تنتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، ويعمر بلدانهم، لا يستغني الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم؛ فموقعكم من الملوك مع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وأيديهم التي بها يبطشون. فتنافسوا يا معشر الكتاب في صفوف الآداب، وتفقهوا في الدين وابدأوا بعلم كتاب الله عزَّ وجَلَّ والفرائض (المواريث)، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع، سنيها ودنيها؛ فإنها مذلة للرقاب، مفسدة للكتاب . . وإياكم والكبر والسخف والعظمة . . وتحابوا في الله عَزَّ وجَلَّ في صناعتكم . . ».

وحين فَرَّ مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية هرباً من العباسيين، أصرَّ عبدالحميد بن يحيى الكاتب على ملازمته حتى لقيا مصرعهما بقرية بوصير المصرية في عام ١٣٢هـ.

- القضاعي الكاتب:

هو كاتب ذائع الصيت، واسع الشهرة في مصر زمن الفاطميين. وقد نبغ في الكتابة نبوغا كبيراً، وحظي بثقة الحكام؛ فكان يجالسهم ويسامرهم.

وكان القضاعي يكتب العلامة أو الإشارة التي تذيل بها الأوراق الرسمية عندما أصبح من كتاب البلاط .

وقد توفي القضاعي في عام ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م .

- **يحيى بن خالد البرمكي :**

هو من البرامكة الذين أصبحوا من ذوي المكانة العالية ، والمنزلة السامية في العهد العباسي برغم أنه من غير العرب .

وكان يحيى بن خالد البرمكي من الكتاب المشهورين المعدودين الذين حظوا بثقة وتقدير الخليفة هارون الرشيد ، فكان يتولى في عهده رئاسة «ديوان الإنشاء» .

الوزارة

- أصل الوزارة:

الوِزَارةُ بكسر الواو أو فتحها: حال الوزير وَمَنْصِبُهُ.

والوَزير كلمة مشتقةُ من الوزْر وهو الثِّقَلُ؛ لأن الوزير يحمل أعباءَ الحكومةِ. والوزير هو المُوزِرُ، وهو خَاصَّةُ المَلِكِ الذي يحمل ثِقْلَهُ، ويعينه برأيه.

ويقال أيضاً إن الوزارة من الوزر وهو الجَبَلُ المَنيعُ، وهو الملجأ والمعتصَمُ؛ فهو يُلجأ إليه، ويُرْجَعُ إلى رأيه وتدبيره.

يقول ابن خلدون: «إن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمراً ثقيلاً، فلا بدَّ من الاستعانة بأبناء جنسه، وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه، وسائر مهنه، فما ظَنُّكَ بسياسة نوعه ومن استرعاه من خلقه وعباده».

وقد طلب موسى - عليه السلام - من الله - سبحانه وتعالى - أن يَمدَّه برجل من أهله يستعين به على القيام بأعباء الحكم. قال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿**وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**﴾ [٢٩-٣٢ طه]

والوزارة فارسية الأصل، وليست من مستحدثات الإسلام، بل هي أقدم عهداً، فقد عرفت مسؤوليات المنصب أيام قدماء المصريين، وعرفت الوزارة لدى بني إسرائيل.

وكـان النبي مـحـمـد ﷺ يخُصُّ أبا بكـر الصديق ببـعض الأمـور. وكـان العرب الذين خالطوا الفرس والروم قبل الإسلام، وعرفوا وظيفة الوزير عنهم يسمون أبا بكر (وزير النَّبي).

وكان عمر بن الخطاب في خلافة أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - يقوم بمهام أشبه بمهام الوزير، كذلك كانت منزلة عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب عند عمر بن الخطاب- رضي الله عنهم- فكان يستعين بآرائهما، ويكلفهما الكثير من مهام الدولة. وكان عَمَلُ كُلٍّ منهما أشبه بعمل الوزير وإن لم يطلق على أيٍّ منهما هذا الاسم.

وعندما انتقلت الخلافة إلى بني أميَّة واستحالت إلى ملك وراثيٍّ احتاج الخلفاء إلى من يستشيرونه ويستعينون به، فاختاروا بعض ذوي الرَّأي لهذه الغاية وقربوهم وأحسنوا إليهم، وسمحوا لهم بحضور مجالسهم، فكان هؤلاء في الواقع يقومون بعمل (الوزير) وإن لم يطلق عليهم لقب وزير.

وَمَعَ ذلك فإنَّ زياد بن أبيه كان يُلقَّبُ بالوزير في عهد معاوية بن أبي سُفيان.

واتخذَ العباسيون نظم الحكم في الدولة العباسية عن الفرس، ومنها الوزارة. وكان الوزير في عهدهم ساعد الخليفة الأيمن، يقضي باسمه في جميع شئون الدولة فكان له الحقُّ في تنصيب العمال في الأقاليم، والإشراف على جمع الضرائب، والقيام على موارد الدولة ومصروفاتها، كما كان له الإشرافُ على (ديوان الرسائل).

وكان ينوب عن الخليفة في حكم البلاد، ويجمع بين السلطتين المدنية والحربية إلى جانب الواجبات العادية في نصح الخليفة ومساعدته.

يقول ابن خلدون: «فلما جاءت دولة بني العباس، واستفحل المُلْكُ وَعَظُمتْ مراتبهُ وارتفعت عَظُمَ شأنُ الوزير، وصارت إليه النّيابَةُ في إنْفَاذ الحل والعقد، وتعينت مرتبته في الدولة، وجُعِلَ لها النَظَرُ في ديوان الحُسْبان، لما تحتاج إليه خُطَّتهُ من قَسْمِ الأعطيات في الجُند، فاحتاج إلى النظرِ في جمعه وتفريقه، وأضيفَ إليه النظر فيه، ثُمَّ جُعِلَ لَهُ النّظَرُ في القلمِ والترسيلِ لصَوْن أسرار السُلطان، ولحفْظ البلاد.. وجُعِلَ الخاتم لسجلات السلطانَ ليحفظها من الذَّياع والشَيَاع، ودُفِعَ إليه، فصار اسمُ الوزير جامعاً لخُطَّتي السيف والقلم، وسائر معاني الوزارة والمعاونة، حَتَّى لقد دُعِيَ جعفر بن يحيى البرمكي بالسلطان أيام الرشيد، إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة، ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة التي هي القيام على الباب، فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك.

وفي صفات الوزير، وتاريخ نشأة الوزارة في الدولة الإسلامية تقرأ لابن طباطبا في كتابه (الفخري): «الوزير وسيط بين الملك ورعيته، فيجب أن يكون في طبعه شطر يناسب طباع الملوك؛ وشطر يناسب طباع العوام ليعامل كُلاّ من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة. والأمانة والصدق رأس ماله، والكفاءة والشهامة من مهماته، والفطنة والتيقظ والدهاء والحزم من ضرورياته، ولا يستغني أن يكون مفضالاً مطعاماً ليستميل بذلك الأعناق، وليكون مشكوراً بكل لسان. والرفق والأناة والتثبت في الأمور

والحلم والوقار والتمكن ونفاذ القول مما لا بد منه». والوزارة لم تتمهد قواعدها، وتتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس، فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد، ولا مقررة القوانين، بل لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية. فإذا حدث أمر استشار ذوي الحجا والآراء الصائبة، فكل منهم يجري مجرى الوزير. فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة، وسُمي الوزير وزيراً، وكان قبل ذلك يسمّى كاتباً أو مشيراً.

- مراسم تنصيب الوزير:

إذا ما رُشحَ شخص للوزارة كان الخليفة يرسل إليه اثنين من الأمراء يحملان كتاب الخليفة إليه، فيسير إلى دار الخلافة، ثُمَّ يمْثُلُ بين يدي الخليفة، ثم ينصرف إلى حجرة أخرى ليرتدي لباس التشريف، ثم يمثل به أمام الخليفة فيُقبل يده، وينصرف، فإذا بَلغَ الباب ألْفَى حصَاناً مُزيَّناً في انتظاره، فيمتطيه ويذهب به إلى (دار الوزارة)، وقد سبقه كبار الموظفين والقواد ورجال البلاط وحجَّاب القصر والموالي، فإذا وصَلَ تَرجَّل وَسْطَ مظاهر الاحتفال، ثم يُقْرأ سِجِلّ تعيينه.

- أطابك «أتابك»:

لَقَبٌ كان يُطْلَقُ على الأمراء الأتراك الذين تقاسموا مُلك السلاجقة ابتداء من عام ٥٤٧هـ / ١١٥٢م، وكان أول من لُقب بهذا اللقب نظام الدولة بن ألب أرسلان، حين فَوّض إليه ملكشاه تدبير الملك عام ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م، ولقبه بألقاب منها هذا اللقب. وقيل (أطابك) معناها (أمير أب) والمراد (أبو الأمراء)، وهو أكبر الأمراء المقدمين.

ولم يكن للأتابك في أول الأمر وظيفة ترجع إلى حكم أو أمر أو نهي، إنما كانت غاية منح اللقب رِفْعَةَ المحَل وعُلُوَّ المقام. وكان (نظام الملك) أحد الوزراء الأفذاذ في العهد السلجوقي ٤٣٢-٥٨٣هـ/ ١٠٤٠-١١٨٧م قد رأى أن يُقْطِعَ القادة والمبرزين في الدولة إقطاعات بدل الرواتب التي يتقاضونها بعد أن وجَدَ أنّ الأموال لا تجيء بانتظام من البلاد لاختلال في شئون الإدارة فيها.

ولم يكن في هذه الإقطاعات خَطر على سياسة الدولة إبَّان قوتها، فلما بدأ ضعفها عَمدَ كُلُّ مالك إلى إقطاعه وعاش فيه مستقلا عن السلاجقة، فاستغل بعض الأتابك وضعهم، فصاروا يوسعون نفوذهم وينشرون سلطانهم باسم أمراء السلاجقة.

ومن الأتابكيات التي كان لها شأن بارز في ذلك العهد أتابكيات دمشق، والموصل، والجزيرة بالعراق وغيرها . .).

وكانت دولة خوارزم إحدى دول الأتابكة التركية؛ التي نافست دولة السلاجقة، وكان مؤسسها محمد بن أنوشكتين الذي لُقّبَ بخوارزم شاه، أي ملك خوارزم.

- أمير الأمراء:

ظَهَرَ هذا اللقبُ في عهد الخليفة الراضي، من خلفاء العصر العباسي الثاني (٣٢٢-٣٢٩هـ/ ٩٣٤-٩٤٠م)، وكانت الفوضى قد كَثُرَتْ، والمؤامرات قد توالت، ومصادرة الأموال قد تكررت . . وأصبح كرسي

الوزارة أرجوحة يتداوله أشخاص عديدون، ابن الفرات تارة، وعلي بن عيسى تارة، وحامد بن العباس وابن مقلة أخرى وغيرهم . . ولم يكن أحد يطمئن على نفسه ولا على ماله. واستقلَّ الوُلاةُ عن السلطة المركزية، وقَلَّت الأموال التي تُحْمَلُ إلى العاصمة، واستولى بنو بويه على فارس.

فأنفذ الخليفة الراضي (٣٢٢-٣٢٩هـ/ ٩٣٤-٩٤٠م) لابن رائق رسولا يُعَرِفُهُ أنه قَلَّدَه الإمارة ورياسة الجيش وجعله أمير الأمراء، وَرَدَّ إليه تدبير أعمال الخراج؛ والضِّياعَ؛ وأعمال المُعاون في جميع النواحي، وفَوَّضَ إليه تدبيرَ المملكة، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر في الممالك وبأن يُكَنَّى، وأنفذَ إليه الخلعَ واللواء. لكن هذا المنصب لم يضعْ حدا للاضطراب، بل سبَّب زيادة الفوضى؛ إذ تطاحَن عليه كبار القادة.

لقد بدأ عصر (إمارة الأمراء) قبل البويهيين بعشر سنوات، وآل هذا اللقب أخيراً إلى بني بُوَيه. وكان مُعِزُّ الدولة أولَ من لقب به منهم.

وفي فترة إمْرَة الأمَراء بَطُل أمرُ الوزارة، فلم يكن الوزيرُ ينظر في شيءٍ من أمر النواحي ولا الدواوين ولا الأعمال، ولا كان له غير اسم الوزارة فقط، وأن يحضر في أيام المواكب دار السلطان.

نماذج من الوزراء

- أبو الفتح الفضل جعفر بن الفرات:

كان أول من حمل لقب الوزارة بمصر منذ الفتح الإسلامي، وكان ذلك في عهد أول حاكم إخشيدي محمد بن طفيح الأخشيد (٣٢٣-٣٣٥هـ/ ٩٣٥-٩٤٦م)، وقد توفي الفضل عام ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م، فتولى ابنه جعفر الوزارة مكانه، فَظَلَّ يشغل هذا المنصب حتى نهاية الدولة الأخشيدية، وعندما حضر الفاطميون إلى مصر رفض جوهر الصقلي أن يعفي جعفراً من الوزارة؛ تمشياً مع سياسته التي كانت تقوم على عدم إحلال الشيعيين محل السنيين في المناصب دفعة واحدة حتّى لا يقف دولاب العمل الحكومي.

وقد عرض المعز لدين الله الفاطمي على جعفر بن الفرات منصب الوزارة، فاعتذر عن قبوله، فطلب إليه المعز البقاء في القاهرة بعد اعتزاله منصبه؛ ليكون على مقربة مِنْهُ حتى يستشيره في الأمور المهمة التي تعرض له.

وكان يعقوب بن كلس يعتمد على ابن الفرات في كثير من الأمور، بل إن جعفر ابن الفرات عاد إلى تولِّي الوزارة في عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله سنة كاملة.

وهكذا نجد جعفر بن الفرات تولى الوزارة في عهد العباسيين والأخشيديين والفاطميين.

- أبو عبد الله معاوية بن يسار:

عمل وزيراً للخليفة العباسي المهدي بن أبي جعفر المنصور. يقول ابن طباطبا في كتابه الفخري: «إن أبهة الوزارة ظهرت في عهد المهدي بسبب كفاءة وزيره أبي عبدالله معاوية بن يسار؛ فإنه رتب الدواوين، وقرّر القواعد، وكان كاتب الدنيا، وأوْحَدَ النَّاس حِذقاً وعِلْماً وخبرةً».

وكان يعمل كاتباً للمهدي ونائباً له، قبل الخلافة. ضَمَّهُ المنصور إليه، وكان قد عزم على أن يستوزره، لكنه آثر به ابنه المهدي، فكان غالباً على أمره، لا يعصي المهديُّ له أمراً. وكان المنصور لا يزال يوصيه فيه، ويأمرُه بامتثال ما يشير به.

فلما مات المنصور وجلس المهديُّ على كرسي الخلافة فَوَّضَ إليه تدبير المملكة، وسلَّمَ إليه الدواوين، وكان مقدّماً في صناعته، فاخترع أموراً؛ منها أنه نقل الخراج إلى المقاسمة، فقد كان السلطان يأخذ عن الأرض خراجاً مُقرراً ولا يقاسم، فلما ولي أبو عبد الله الوزارة قرر (المقاسمة). وهو الذي قرر الخراج على النخل والشجر، وصنَّفَ كتاباً في الخراج ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده. وهو أوّلُ من صنّفَ كتاباً في الخراج وتَبعهُ الناسُ في ذلك فصنفوا كتب الخراج.

ولم ينجُ أبو عبد الله معاوية بن يسار من مؤامرات الربيع بن يونس، برغم أن أعداءه كانوا يشهدون له بالجد والاستقامة والعدل؛ فقد وجد الربيع في عبد الله ابن الوزير مادّة للوشاية به لدى الخليفة فاتهم الربيعُ عبدَ الله

بالزندقة. فكان أن اختبره الخليفة في حفظ القرآن فوجده لا يحفظ شيئاً، وكان أبوه قد نقل إليه أنه حفّظهُ القرآن، فأمر الخليفة بقتل عبد الله. وصار الربيع بعد ذلك يوغر صدر الخليفة ضد أبي عبد الله، ويبعث في صدر الخليفة الخوف من أن يثأر منه أبو عبد الله بعد أن قتل ولده، فصرف الخليفة أبا عبد الله عن وزارته عام ١٦٣هـ/ ٧٧٩م، واقتصر به على ديوان الرسائل، ثم عزله عن ديوان الرسائل عام ١٦٧هـ/ ٧٨٣م، وقلده الربيع بن يونس.

ولقد كان أبو عبد الله معاوية بن يسار من خيرة الوزراء، وأكثرهم كفاءة، وأنصعهم تاريخاً.

(انظر: «المهدي»)

- الأفضل بن بدر الجمالي:

هو ابن بدر الجمالي الذي كان يعمل والياً على عكا في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وقد استنجد المستنصر ببدر الجمالي ليقضي على الفتن الداخلية والحروب التي قامت بين طوائف المغاربة والترك والأرمن الصقالبة والسودانيين بسبب المنافسة بينهم على السلطة في عهد المستنصر.

وكان لبدر الجمالي الفضل في إعادة النظام والحياة إلى مصر في عهد المستنصر، فقد قبض على زمام السلطة بها عام ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م، وظل بمصر إلى أن مات، فتولى الوزارة بعده ابنه شاهنشاه بعهد من أبيه، واستبدّ بالسلطة، حتى أصبح الخليفة المستنصر في عهده كالمحجور عليه الذي لا يستطيع أن يبرم أمراً أو ينفذ إرادة.

وقد عمل الأفضل بن بدر الجمالي على الاستئثار الكامل بالسلطة بعد وفاة المستنصر، فَوَلّى المستعلي الخلافة دون أخيه نزار الذي كان يستحقها بعهد من أبيه، وقامت بسبب ذلك حروب بين أنصار الطرفين انتهت بموت نزار.

وكان الأفضل مُحبّا للعلم، فقد ترك مكتبة فخمة تضم خمسمائة ألف مجلد من الكتب، وكان يشجع الشعراء والعلماء والكتاب.

وبلغت ثروة الأفضل من الضخامة مبلغاً كبيراً، وكان في داره التي بناها عام ٥٠١هـ/ ١١٠٧م من الذخائر النفيسة والثياب والطِّيب والنحاس والآلات ما لا يُحْصى.

وانتهت حياة الأفضل بمؤامرة دبَّرَها الخليفة الآمر ٤٩٥-٥٢٤هـ/ ١١٠١-١١٢٩ لقتله، وآلت الوزارة بعده إلى عبد الله المأمون بن البطائحي.

- جعفر بن يحيى:

خلف أباه يحيي بن خالد البرمكي في الوزارة. وفي عهده قبض البرامكة على أزمَّة الحكم، وصار بيدهم الدَخْلُ والخَرْجُ، حتّى كان هارون يطلب البسيط من المال فلا يصل إليه إلا عن طريق البرامكة. فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه، فعظُمتْ آثارُهم واجتازوها، وبَعُدَ صيتُهم، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واجتازوها لأنفسهم عمّن سواهم، من وزارة وقيادة وكتابة، وانصرفت نحوهم

الوجوه، وتخطّتْ إليهم من أقصى الُتخومُ هدايا الملوك، وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء.

وإليك هذه القصة التي تدل على عُلُو مكانة جعفر بن يحيي لدى الرشيد:

طلب عبد الملك بن صالح العباسي إلى جعفر بن بحيي أن يخاطب الرشيد في ثلاث حوائج، هي: أن يقضي عنه ديناً مقداره ألف ألف درهم، وأن يُوَلّي ابنه إحدى الولايات ليرتفع بذلك قدره، وأن يُزوِّجَ هذا الابن من ابنة الخليفة؛ لأنها بنت عمه. فقضى له جعفرُ هذه الحوائج الثلاث من فورُه وقال له: أما المالُ ففي هذه الساعة يحملُ إلى منزلك، وأما الولاية فقد وليْتُ ابنك مصر، وأمَّا الزَوَاجُ فقد زَوّجته فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين على صداق مبلغه كذا كذا.. فانصرف في أمان الله.

وقد أقر الرشيد فيما بعد جعفر بن يحيي البرمكي على ما فعل.

ولقد أعاد جعفر بن يحيي الأمن إلى الشام، فقضى على الفتنة التي ثارت فيها عام ١٨٠هـ/ ٧٧٦م، وكان جعفر مخلصاً للرشيد، لكن دسائس الفضل بن الربيع أوغرت في النهاية صدر الرشيد على البرامكة. وكان الفضل يشي بالبرامكة إلى الرشيد ولخاصته، ويتهمهم بأنهم يعملون للوصول إلى الخلافة، وأنهم ملاحدة وثنيون، فكانت نكبة البرامكة، حيث قسا هارون الرشيد في معاملة جعفر، وأمر بقتله، وحبس يحيى وبقية أولاده حتى مات يحيى والفضل في السجن، وظل بقية البرامكة في السجون حتى عفا عنهم الأمين.

(انظر: «هارون الرشيد»)

- خالد بن برمك:

يرجع نسب خالد إلى جده برمك، وكان برمك كاهن بيت النّار بمدينة بلخ. وخالد بن برمك أوَّلُ برمكي اتصل بالعباسيين، وكان يعمل في جيش قحطبة بن شبيب. وقد حضر خالد لمبايعة أبي العباس عبد الله السفاح، وأعجب أبو العباس بفصاحته وذكائه وثبَّته على وظيفته التي كان يتقلدها في جمع وتوزيع الغنائم، وأسند إليه ديوان الخراج و ديوان الجند، وقد تقلَّد خالد بن برمك الوزراة في عهد أبي العباس عبد الله السفاح بعد مقتل أبي سلمة الخلال في رجب عام ١٣٢هـ، وظل يشغل هذا المنصب طوال ما بقي من حياة السفاح، ثمَّ لمدة عام وبضعة أشهر في عهد خلافة أخيه أبي جعفر المنصور.

وكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزير ولا يُسمَّى وزيراً، فقد كان يتشاءم من لقب الوزير؛ لأنه رأى نهاية أبي سلمة الخلال.

وعن خالد بن برمك يقول المسعودي في كتابه (مروج الذهب): «ولم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جَوْدَة رأيه وبأسه وجميع خلاله، لا يَحْيى في رأيه، ولا الفضَلُ بن يحيى في جوده، ولا جعفر في كتابته وفصاحته، ولا محمد في رأيه وهمته، ولا موسى في شجاعته.

وقال الجاحظ: «وحدثني ثمامة قال: كان أصحابنا يقولون: لم يكن يُرَى لجليس خالد دارٌ إلا وخالد بناها له، ولا ضَيْعَةٌ إلا وخالد ابتاعها له، ولا ولدٌ إلا وخالد ابتاع أمَّه إن كانت أمَةً أو أدَّى مهرها إن كانت حُرَّةً، ولا دابَّة إلا وخالد حمله عليها».

(انظر: «أبا العباس عبد الله السفاح وأبا جعفر المنصور»)

– الربيع بن يونس:

عمل وزيراً لأبي جعفر المنصور، وقد حاز ثقته، وكان ملما بشئون الدولة، عارفاً بآداب الملوك. وقد صحب المنصور في رحلة الحج التي قام بها عام ١٥٨هـ/ ٧٧٥م، وفيها مات المنصور في السادس من ذي الحجة قبل أن يصل إلى مكة.

وقد كتم الربيع خبر وفاة الخليفة عن وجوه بني هاشم، وأوهمهم أنه لا زال على قيد الحياة، وأجلسه كما يجلس عادة في مجالسه مستعيناً بمساند، وتظاهر أمام المجلس بأنه يحادث الخليفة، ثم صرفهم وجمعهم مرة أخرى ليعلمهم بأن الخليفة يطلب منهم تأكيد البيعة للمهدي، ففعلوا وبعدها أعلمهم بوفاة الخليفة.

كان الربيع بذلك يعتقد أنه قدم خدمة جليلة للمهدي؛ إذ حدَّد له البيعة.. لكن المهدي استاء هو ووزيره أبو عبد الله بن يسار من تلك الفعلة؛ لما فيها من إيذاء لكرامة الموتى.

وظلَّ الربيع بن يونس يسعى بالدَّسِ بين الخليفة ووزيره أبي عبيد الله، حتى نجح في الوصول إلى منصب الوزير عام ١٦٧هـ/ ٧٨٣م، وظل يشغل ذلك المنصب حتى قتله الخليفة الهادي إبان خلافته.

– شاور وضرغام:

بلغ التنافس بين من يتطلعون إلى منصب الوزارة درجة كبيرة من الشدة، إلى حد جعل المتنافسين يستعين كل منهم بالقوى الخارجية لتضمن له

الجلوس على كرسي الوزارة . . ونعلم ما يمكن أن يؤدي إليه تدخلُ القوى الخارجية من الأخطار.

ففي عهد الخليفة العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية ٥٥٥هـ - ٥٦٧هـ/ ١١٥٩-١١٧١م كان الصراع على أشُده بين كل من شاور بن مجير بن نزار الذي تولى بالفعل منصب الوزارة بعد أن قتل العادل بن طلائع بن رزيك، الوزير الذي كان يشغل المنصب، والذي كان قد مضت عليه سنتان في كرسي الوزارة. وكان ذلك في عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م.

وكان هناك في الوقت نفسه في بلاط الخليفة العاضد (ضرغام) الذي لم يعجبه ما حدث، فقام بثورة على شاور وخلعه وأرغمه على الهرب. وكان لا بد من حسم تلك المعركة بين شاور وضرغام. استنجد شاور بنور الدين زنكي أمير حلب، وَحثّهُ على فتح مصر، واستنجد ضرغام بن عامر اللخمي بالصليبيين.

وأسفرت الحملات الحربية، والاشتباكات القتالية عن مقتل ضرغام ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م، ومقتل شاور ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م.

وتقلد أسد الدين شركُوه وزارة العاضد، ولكنه مات، فتولّى صلاح الدين الأيوبي الوزارة مَكَانه.

وكانت نهاية الخليفة العاضد ونهاية الخلافة الفاطمية معه . . فقد قطع صلاح الدين اسم الخليفة من الخطبة، ودعا للخليفة العباسي المستضيء، بدلاً منه. واستقلّ صلاح الدين الأيوبي بمصر يحكمها باسم نور الدين زنكي ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م.

- الفضل بن الربيع:

هو الفضل بن الربيع بن يونس. نجح أبوه الربيع بن يونس في الوصول إلى منصب الوزير في عهد أبي جعفر المنصور عن طريق الدَّس والوقيعة لأبي عبد الله بن يسار لدى الخليفة المهدي.

وسلك الفضل الأسلوب نفسه الذي سلكه أبوه. كان يعمل حاجباً لدى الرشيد وقد سار معه لإخضاع تمرد رائع بن ليث في خراسان، لكنَّ مرض الخليفة الرشيد حال بينه وبين مواصلة الرحلة، فتخلف ومعه الفضل بن الربيع في طوس بإقليم جرجان، ومضى المأمون وحده لمواصلة الحملة بعد أن أوْصَى الفضل بأن يلحق به. لكنَّ الفضَل بدأ يقيس الأمور بمقياس مصلحته الخاصة، فرأى أن يعود إلى بغداد ليكون بجوار الخليفة الجديد محمد الأمين.

وقد عمل الفضل بن الربيع على نقل ولاية العهد إلى موسى بن الأمين، على حين أن الرشيد كان قد أوصى بها للمأمون بعد الأمين.. وهكذا باعد الفضل بن الربيع بين الأخَوَيْن، وتسبب في قيام معارك حربية طويلة بينهما، سقط في نهايتها الأمين عام ١٩٨هـ/ ٨١٣م. وعند ذاك آثر الفضل ابن الربيع أن يختفي تماماً من مسرح الأحداث. وكان الفضل بن الربيع وراء نكبة البرامكة في عهد الرشيد؛ فهو الذي أقنع الرشيد بأنهم ملاحدة وثنيون، وأنهم يؤيدون العلويين سرّا، وأنهم يطمعون في الخلافة. وقد ركّز في دسه على جعفر بن يحيى البرمكي الذي كان يعمل وزيراً للرشيد،

ونجح في الكيد له حتى انتهى الأمر بقتل جعفر، وصلب جثته على جسور بغداد وألقى بباقي أفراد الأسرة في السجون.

وتُعدّ مؤامرة الفضل بن الربيع أفظع مؤامرات العصر العباسي الأول وأقساها.

وقد ظلّ الفضل بن الربيع مختفياً إلى أن قدم المأمون إلى بغداد واستقر له الأمر، فتوسل الفضل إليه، أن يغفر له جريمته الكبرى؛ فغفر له، واكتفى بأن أهمله، ولم يستخدمه، فكانت مرتبته منحطة في دار المأمون، وظلّ كذلك إلى أن مات عام ٢٠٨هـ/ ٨٢٣م.

- الفضل بن سهل ١٥٤-٢٠٢هـ/ ٧٧١-٨١٨م:

هو الفضل بن سهل السرخسي، أبو العباس. كان الفضل بن سهل مؤدبَ المأمون، وكان منذ عهد الرشيد يكتب له ويتولّى أمْرَه كُله، وقد صاحب الفضل المأمون في الحملة التأديبية التي قادها المأمون للقضاء على ثورة رائع بن ليث في العام الأخير من حياة الرشيد، وإليه يرجع الفضل في تطويع أبناء خراسان للمأمون، بحيث صاروا يحبونه ويحترمونه، بل إن رافع بن ليث دخل في طاعته عام ١٩٤هـ/ ٨٠٩م.

ويرى بعض المؤرخين أن دولة المأمون كانت منحة قدّمها له الفضل بن سهل، فهو الذي أقنعه بالتمسك بحقه في أن يتولى الخلافة بعد الأمين، وأن يهبّ للدفاع عن هذا الحق عندما أراد أخوه الأمين أن ينكث بعهد أبيهما الرشيد الذي كان قد أوصى بأن تكون الخلافة للمأمون بعد الأمين. ولكن هذا الأخير كان يريد أن يجعل ولاية العهد لابنه موسى.

وقد أقنع الفضلُ بن سهلٍ المأمونَ بالاستعداد لمواجهة الأمين وأعدَّ له العُدَّة اللازمة من الرجال والسلاح للدفاع عن حقه وتحقق له النصر بعد مقتل قائدي الأمين، ابن ماهان وعبد الرحمن بن جبلة.

ويقول ابن الأثير في كتابه (الكامل): إنه لما صح عند المأمون خبر قتل ابن ماهان وعبد الرحمن بن جبلة، قائدي الأمين أمر المأمون أن يُخْطبَ له ويخاطبَ بأمير المؤمنين.

ودعا الفضل بن سهل، وعهد له على المشرق، وجعل له عمالة قدرها ثلاثة ملايين من الدراهم، وعقد له لواءً على سنان ذي شعبتين، ولقبّه ذا الرياستين: رياسة الحرب، ورياسة التدبير، وولى شقيقه الحسن بن سهل ديوان الخراج. والفضل ابن سهل هو أول وزير يجتمع له لقب (ذي الرياستين).

وقد حاول الفضل بن سهل الاستئثار بالسلطان بعد مقتل الأمين فعين أخاه الحسن بن سهل والياً على العراق، وكان للفضل السلطان في خراسان، وأبعد الفضل القائدين المظفرين طاهر بن الحسن وهرثمة بن أعين اللذين كان لهما الفضل في انتصار المأمون على الأمين عن العاصمة، وعمل على تعيين ولي للعهد من العلويين مما أثار ثائرة البغداديين.

وقد أدرك المأمون خطر الفضل بن سهل. ويروي الطبري أن الفضل كان قد شعر بتغير المأمون عليه فارتحل من مرو، حيث كان المأمون قاصداً مسقط رأسه (سرخس)، فشدّ قوم عليه وهو بالحمّام فضربوه بالسيوف حتى مات، وكان ذلك في يوم الجمعة لليلتين خلتا من شعبان سنة اثنتين ومائتين.

- نِظَامُ المُلْكِ:

من الوزراء الأفذاذ في التاريخ الإسلامي الطويل، تولى الوزارة في عهد السلاجقة (٤٣٢-٥٨٣هـ/ ١٠٤٠-١١٨٣م)، وتولاها من بعده سبعة من أبنائه، وكان له باع كبير في السياسة والحرب، وكانت له إسهامات كبيرة في نشر الثقافة والمعرفة ورعاية العلم والعلماء.

أخلص نظام الملك لسلاطين الدولة السلجوقية، فكان له أثر كبير في معاونة ألب أرسلان على الوصول إلى السلطنة. وصحبه نظام الملكَ في معظم حروبه. وهو الذي وَطَّدَ المُلْكَ للملك ملكشاه بعد اغتيال ألب أرسلان، وخاض في سبيل ذلك الكثير من المعارك، فعرف له ملكشاه الجميل وقال له: أنت الوالد. ولقّبه (أتابك) وأقطعه إقطاعاً زائداً، وتفرغ ملكشاه لملذاته.

كان نظام الملك فيلسوفاً عالماً يحب العلماء ويقربهم، ولقد أنشأ شبكة من المدارس التي تحمل اسمه فَسُميت (المدارس النظامية)، وتُعدّ من أقدم الجامعات في العالم، وكانت في بغداد، وبلخ، ونيسابور، وهراة، وأصفهان، والبصرة، ومرو، والموصل وغيرها.

ويقول السبكي في كتابه (طبقات الشافعية الكبرى) ج ٣ ص ٤٣٧:

كان لنظام الملك في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة. وقد دعا نظام الملك عباقرة عصره كالغزالي الذي اشتهر في محيط العلوم الإسلامية والتصوف والفلسفة، وكان ألمع مدرسي المدارس النظامية، و عمر الخيام الذي اشتهر في الدراسات الطبيعية والرياضية، وعرف في أوربا برباعياته.

لقد خاض نظام الملك حروباً عديدة مع ألب أرسلان ومع ابنه ملكشاه تم الاستيلاء فيها على العديد من الحصون والحاميات، وكُتب فيها النصر للمسلمين على الروم.

وكانت نهاية نظام الملك على يد طائفة الحشاشين الذين أنفذوا فيه حكم الموت.

والحشاشون جماعة نشرت الذعر في كثير من البلاد الإسلامية في عهد السلاجقة، كان يتزعمهم الحسن بن الصباح، وكانت لهم أفكار سياسية ودينية متطرفة، وقد قضى السلطان بيبرس عليهم، فاحتل معاقلهم بسورية في الوقت الذي احتل فيه المغول مواقعهم في فارس.

- يحيى بن خالد:

هو يحيى بن خالد بن برمك، كان محظوظاً في بلاط المنصور والمهدي، وقد تربى الرشيد في حجره، ورضع من زوجته.. وأغدَقَ عليه يحيى حُبَّه وعطفه وحنانه، وكان الرشيد يناديه (أباه). وقد قام يحيى على تربية الرشيد فأحسنها، فكان يحيى له مُرَبياً وأباً.

يروي ابن الأثير أنه لما تَقَلد هارون الخلافة دعا يحيى بن خالد فقال له: «يا أبت، أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك، وحسن تدبيرك، وقد قَلدتُك أمرَ الرعية، وأخرجته من عنقي إليك فاحكم بما ترى، واستعمل من شئت، واعزل من رأيت، فإني غيرُ ناظر معك في شيء، ودفع إليه خاتَمهُ، فنهض يحيى بن خالد بأعباء الدولة أتمَّ نهوض، وسد الثغور، وتدارك

الخلَلَ، وجبى الأموال، وعَمَّر الأطراف، وأظهر رونق الخلافة، وتصدى لمهمات المملكة، وكان كاتباً بليغاً لبيباً سديداً صائب الآراء، حسن التدبير، ضابطاً لما تحت يده، قوياً على الأمور، جواداً يباري الريح كرماً وجوداً، ممدَّحاً بكل لسان، حليماً عفيفاً وقوراً مهيباً.

وكان يحيى يحظى بعطف الخيزران، أم الرشيد، وكان يعرض عليها أمور الدولة، ويوردُ ويُصدرُ عن أمرها.. فلمّا ماتت الخيزران ١٧٣هـ-٧٨٩م استقلَ يحيى بالأمر.

ومن أعمال يحيى أنه شقَّ نهراً كان يسمى (أبا الجنة) ازدهرت بسببه أرض واسعة كانت جرداء، وأمر بإجراء القمح على أهل الحرَمَيْن، وكان يحمله من مصر إليهم، وأجرى الأرزاق على أحفاد المهاجرين والأنصار، وعلى أهل الدين والآداب، وأنشأ كتاتيب لليتامى.

(انظر: «هارون الرشيد»)

- يعقوب بن كِلس ٣١٨-٣٨٠هـ/ ٩٣٠-٩٩٠م:

هو يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن كلس، أبو الفرج، كان يهودي الأصل، ولد ببغداد؛ ونشأ بها، وقد قدم إلى مصر عام ٣٣١هـ / ٩٤٢م في عهد الأخشيد، مؤسس الدولة الأخشيدية، واتصل بكافور الأخشيدي، فعينه في ديوانه الخاص، وأسلم يعقوب وصَلّى في الجامع فزادت مكانته عند كافور.

وقد سار ابن كِلس إلى المغرب بعد وفاة كافور الأخشيدي عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م، وعمل في خدمة المعز لدين الله الفاطمي، وحضر معه إلى

مصر عام ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م، وأسند إليه المعز إدرة شئون الدولة الفاطمية الحربية والمدنية.

وكان يعقوب بن كلس يجلس للمظالم كل يوم بعد صلاة الصبح فيدخل عليه الناس بظلاماتهم وحاجاتهم واتخذ في قصره عدَّة دواوين أسند إليها النظر في شؤون الجيش والمالية والسجلات والخراج . . وَعَيَّنَ لكل ديوان من يحتاج إليهم من الموظفين. وأفرد يعقوب بن كلس في قصره جانباً خاصا للعلماء والشعراء والأدباء والفقهاء وعلماء الكلام والصناع، وأجرى عليهم رواتب كبيرة كانت تدفع إليهم بانتظام، وجعل في قصره مستشفى زوّدَه بعدد كبير من الأطباء لفحص المرضى وإعطائهم الدواء بدون ثمن.

وفي عام ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م كان ليعقوب بن كلس أثر في تحويل الأزهر الشريف إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية، وكانت تلك الجامعة تحت إشرافه.

يقول ابن تغري بردي في يعقوب بن كلس: «كان يعقوب بن كلس من أكبر أسباب حركة المعز وإرسال جوهر القائد إلى الديار المصرية. وفي سنة ٣٦٨هـ لقبه المعز بالوزير الأجل، ثم اعتقله عام ٣٧٣هـ وأطلقه بعد شهور، فعاد إلى القاهرة وفيها العزيز بن المعز، فَوَلي وزارته وعظمت منزلته عنده. وصنف كتاباً في الفقه يعرف بالرسالة الوزيرية، أخذ عنه المعز وابنه العزيز. وكان يعقد المجالس في الجامع العتيق، فيقرر المسائل الفقهية على حسب مذهبهم، وتوفي أيام العزيز فألحده بيده، وأمر بإغلاق الدواوين أياماً بعده».

وقيل إنه كان حسن إسلامه، وقرأ القرآن والنحو، وكان يجمع العلماء والفضلاء.

- الأسطول:

مجموعة من السفن تُعَدُّ للحربِ أو النقل، ويُقال للطائرات أيضاً: أسطول جوي.

والأسطول من معدات الدولة، وقواتها المسلحة، من سفن وغواصات؛ وبوارج؛ وفرقاطات، وحاملات جنود وطائرات وغيره، وهناك الأسطول الجوي الذي يضم قاذفات القنابل، وحاملات الجنود، وطائرات للتجسس.

وفي السلم تطلق لفظة الأسطول على البحرية التجارية.

وقد أصبح الأسطول ضروريا في حياة الأمة الإسلامية عندما فتح المسلمون البلاد المشرفة على البحر مثل الشام وفلسطين ومصر التي اشتهرت بها المراكب النيلية أيضاً.

وتطلق لفظة الأسطول في العصر الحديث على القوات البحرية أو الجوية التي تملكها دولة من الدول.

ولكل سفينة حربية من سفن الأسطول قائد يدير أمرها، ويدرب جنودها.

وكل أسطول بحري له قائد يسمى أمير البحر، ومنه اشتق اللفظ الأجنبي (أدميرال) *(انظر: «أمير البحر»)*

وتفْردُ الدولُ للأسطول جزءاً كبيراً من ميزانيتها المالية العامة.

وفي اللغة: الأسطول مفرد، جمعه أساطيل. وهو يوناني مُعَرَّبُ.

- البحرية:

عُدَّة الدُول وقوتها في البحر من سفن وغواصات، وبوارج وفرقاطات وغيرها؛ فهي وسيلة التعامل مع البحر في السلم والحرب. ولم يكن للعرب تعامل مع البحر في بداية الإسلام، حتى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وقد عزل الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - العلاء الحضرمي والي البحرين الذي غامر وتوجه لغزو فارس بحراً في اثني عشر ألفاً من المسلمين دون أن يستأذن الخليفة، برغم كثرة الغنائم التي عاد بها؛ لأنه خاطر وعرَّضَ المسلمين للخطر.

وقد رفض الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أيضاً طلب عمرو ابن العاص والي مصر بأن يتخذ من الإسكندرية حاضرة لولاية مصر، حيث سأل الخليفة واليه عمرو بن العاص: هل يحول بيني وبين الناس ماء؟ فأجاب عمرو: نعم. إذا جرى النيل. فكتب إليه الخليفة بالرفض. فلم تكن الأمة الإسلامية أمة بحرية حتى نهاية خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ويرجع ابن خلدون في مقدمته ذلك إلى أن العرب أمة بدوية؛ فلم يكونوا أول أمرهم مهرة في البحر وثقافته كالإفرنجة لمارستهم أحواله،

فلما استقر الملك للعرب، وشمخ سلطانه، وصارت بلاد البحر تحت أيديهم برعوا فيه في عهد الخليفة عثمان بن عفان، واستمر تقدمهم، كما بدأ في الشام، وإفريقية والأندلس.

وقد ركب العرب البحر في عهد الخليفة عثمان بن عفان تحت إلحاح من معاوية ابن أبي سفيان والي الشام، وقد اشترط عليه الخليفة ألا يحمل أحداً على ركوبه كرهاً. ثم تفوق المسلمون على غيرهم في الأمور البحرية، وأصبح لهم قوة بحرية هائلة الأثر في السلم والحرب، وأصبح للأسطول الإسلامي تاريخ عظيم بعد أن تعلموا البحرية من البيزنطيين.

وفي اللغة: البحرية من: بَحَرَ، بَحْراً. أي رأى البحر فَفَرقَ وهش، وتَحيرَ من الفزع. والبَحْرُ: الماء الواسع الكثير.

– أمير البحر:

وظيفة من الوظائف التي عرفتها الحضارة العربية، وهي تُمنح قائدَ الأسطول البحري.

ويشرف أمير البحر على كل شيء في السفن؛ من تدريب العاملين بها من ضباط وجنود وعمال، ويسمون البحارة. ويُعَينُ قباطنة السفن، كما يشرف على تجهيزات السفن في السلم والحرب، ورئيس كل سفينة يعد مسئولاً أمام أمير البحر.

ومن كلمتي (أمير البحر) اشتقت الكلمة الإفرنجية أدميرال "ADMIRAL" وتعني المعنى نفسه الذي تعنيه الكلمة العربية.

وأمير البحر يُعدُّ في العصر الحديث بمثابة قائد القوات البحرية.

- الثغر:

البلد، أو الموضع الذي يطل على البحر، ويُخشى منه هجوم العدو على هذا الثغر. والثغر البحري يكون به مرافئ للسفن.

وتكون حماية هذه الثغور عادة مسؤولية سلاح البحرية من الجيش.

وفي اللغة: الثغر الموضع، يخاف منه هجوم العدو، ولذلك سميت المدينة التي على شاطئ البحر ثغراً.

- مَرْكَب:

ما يركب في البحر، وتطلق أيضاً على السفينة، وقد تكون جزءاً من الأسطول البحري، كما تكون أيضاً آلة يستخدمها الناس في تنقلاتهم عبر البحار.

وفي اللغة: المرْكَبُ: من الفعل: رَكِبَ، يركَبُ، ركوباً فهي مَرْكَبٌ، وجمعها: مراكب. وقد جرى استعمالها على ما يركب في البحر كالسفينة وغيرها.

- البريد

أداة من أدوات الخدمات التي تسهم بفاعلية في إدارة شئون الدولة. ويرجع أصله إلى تلك الدابة التي كانت تحمل الرسائل في مسافات طويلة وقد اختلف حول تقديرها.

وقد عرف العرب البريد عن طريق الروم، وأحكم أمره في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ٦٥-٨٥هـ/ ٦٨٤-٧٠٤م. ومما ينسبه إليه القلقشندي في ذلك قوله: قال الخليفة عبد الملك بن مروان إلى أحد رجاله: لا تحجب عني أربعة... والبريد متى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه فربما أفسد على القوم سَنة حَبْسُهُم البريدَ ساعة.

وكان البريد في أول الأمر خاصّاً بمصالح الدولة، وكان له في العهد الأموي ديوان خاص به (وهو ما يشبه مصلحة البريد الآن).

وفي اللغة: بريد مفرد، وجمعه بُرُد. وهو حامل الرسائل الآن، أو ما يعرف بساعي البريد.

- الحمام الزاجل:

نوع من الحمام كان يستخدم في إرسال الرسائل الموجزة إيجازاً شديداً والمرسلة إلى مسافات بعيدة كالبريد الآن. وتشد هذه الرسائل تحت جناح الحمامة أو إلى ذيلها، وكانت الرسالة تكتب من صورتين مع حمامتين تطلق إحداهما بعد ساعتين من إطلاق الأخرى، حتى إذا قتلت إحداهما أو ضلت الطريق أمكن الاعتماد على الأخرى.

وقد جرت العادة على عدم إرسال الرسائل مع الحمام الزاجل في الأيام الممطرة. ولا مع الحمام الجائع؛ فلا بد من تغذيته تغذية جيدة.

وكان البريد السلطاني يرسل بواسطة حمام مميز بعلامات خاصة، حتى إذا وصل تولى السلطان فضّ الرسالة بنفسه.

وقد استخدم الظاهر بيبرس في مصر الحمام الزاجل في رسائله.

- صاحب البريد:

هو من يراقب الولاة ويتجسس على الأعداء، فهو أشبه ما يكون بجهاز المخابرات الآن.

وقد كانت وظيفة صاحب البريد في أول الأمر نقل أخبار عمال الأقاليم والأمصار إلى الخليفة، وكان بمثابة عين للخليفة على ولاة الأقاليم، ينقل إليه أخبارهم، ويحمل إليه أسرارهم.

ومما يرويه الطبري عن أبي جعفر المنصور أنه كان يقول: يستند الحكم على أربعة.. وصاحب بريد يكتب إليَّ بِخَبَرِ هؤلاء الولاة على الصحة.

وكان الولاة كثيراً ما يتفقون على كلمة سر بينهم وبين الملوك والخلفاء، فلا يعتمد الحاكم على كتاب صاحب البريد إلا إذا كان يحمل تلك العلامة.

- الحسبة

نظام مؤداه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لمراعاة أحكام الشرع، والمحافظة على الآداب والفضيلة والأمانة والنظام العام في الأسواق، ودقة الموازين والمكاييل، ونظام البناء. وهو منصب شريف من مناصب الدولة الإسلامية، يسمى من يتولاه المحتسب.

والخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أول من وضع نظام الحسبة في الأمة الإسلامية، وقام بنفسه بعمل المحتسب. ومن المشهور المتواتر عنه - رضي الله عنه- أنه رئي مرة يضرب جمّالاً ويقول له: «حمَّلت جملك ما

لا يطيق». وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يشرف على نظام الحوانيت وبروزها في الطرقات بما لا يعوق نظام المرور، وكان يطوف بالأسواق لمراقبة النظام.

فالحسبة نظام من أنظمة الدولة الإسلامية القائم على الشدة والسرعة في الفصل في الأمور، وإقامة النظام.

وفي اللغة: الحسبة من الحساب، والحَسْبُ: أي التقدير والعدُّ. وهي أيضاً من الحسيب أو المحاسب.

قال تعالى: ﴿ **اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** ﴾ [١٤- الإسراء]

- الشرطة

جهاز من أجهزة الدولة، يعتمد عليه الحاكم في حفظ النظام واستتباب الأمن؛ وتأديب الجناة والمفسدين، فهي تطلق على حَفَظة أمن البلاد.

وكانت الشرطة في الدولة الإسلامية في أول نشأتها تابعة للقضاء؛ فهي التي تنفذ أحكامه، وتقيم الحدود، ثم استقلت عن القضاء في كثيرمن البلدان مع ترابط أجهزة الدولة وتعاونها في حفظ النظام.

وباستقلال الشرطة أصبح هناك وظيفة صاحب الشرطة، وهو رئيس الشرطة الذي يساعد الحاكم في حفظ النظام، وتنفيذ الأحكام، وهو يشبه الآن المحافظ؛ أو أمير المنطقة.

ولقب (صاحب الشرطة) أول ما عُرِفَ في عهد الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وكـان صـاحـب الشـرطة يصلي بـالناس إذا غـاب الأمـيـر أو الوالي، وهو الذي يتولى التصرف في أعطيات الجند.

وصاحب الشرطة كان يطلق عليه في بلاد المغرب العربي بإفريقية اسم الحاكم، وكان يسمى في بلاد الأندلس باسم (صاحب المدينة) وقد سمي في مصر في عهد المماليك باسم (الوالي).

وفي اللغـة: الشُّرْطَةُ: حـفظة الأمن في البـلاد، وأحـدها: شُرْطيٌّ أو شُرَطيّ. وهو مِن: شَرَطَ يشْرُط، شُرْطَة.

- **العسس:**

هو نظام كان يستخدمه الحكام لمعرفة أحوال الناس، وكشف أهل الريبة، والاطمئنان على سير الأعمال الإدارية، وسلامة أفراد الشعب بانتشار أفراد ثقات يجمعون المعلومات عن الرعية وأحوالها، ويطوفون ليلاً خلال الديار للاطمئنان على شيء ما، أو كشف أهل السوء والريبة.

والخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أول من أدخل نظام العسس في نُظُمِ الأمة، وكان يقوم به بنفسه حتى يطمئن على أحوال الرعية.

وفي اللغة: العسس: من عَسَّ: أي طاف ليلاً. ومن يقوم بذلك يسمى (عاسّ)، وجمعه عَسَسُ وعَساس. ويقال: عَسْعَسَ الليل: أي أتى وأقبل بظلامه، وعَسْعَسَ الشيءَ: حركه. قال تعالى: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**﴾ [١٦- التكوير]

***

الفهرس

نظم الحكم في الدولة الإسلامية

القاموس الإسلامي

للناشئين والشباب

إعداد ومراجعة: نخبة من أعلام الكُتّاب والباحثين

هذا القاموس محاولةً غير مسبوقة في صياغته وإعداده وفي الفئة التي أعدَّ من أجلها إعداداً يتناسب في مادته ولغته وأسلوب عرضه مع احتياجاتها الفكرية والنفسية والتربوية.

إنه قاموس متخصص يعالج المصطلحات الشرعية اللازمة لتثبيت المفاهيم الإسلامية الصحيحة لدى الناشئين والشباب في العبادات والمعاملات، ويوفر لهم الزاد اللازم عن أبرز معالم الحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي، والقيم التي أرساها الإسلام ورسَّخ أصولها.

ويتكون هذا القاموس من خمسة عشر جزءاً تتضمن المواضيع التالية:

ردمك ٦-٣٩٥-٢٠-٩٩٦٠

97080506000206